

دكتور/ أحمد خالد عبده

التحقيق

(رواية)



المكتبة المصرية الحديثة

www.almaktabalmasry.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقداً

المكتبة المصرية الحديث

www.almaktabalmasry.com

info@almaktabalmasry.com

ت: ٣٩٣٤١٢٧

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية

العمدة

لاشك أننى لم أكن مهيباً ولا متعوداً على مثل هذه الحوادث، وأعترف أننى شعرت بالارتباك والفرع عندما أبلغنى شيخ الخفر أن حارس منزل السيدة فوزية شقيقة فهمي بك عبد الرحمن وجدها ميتة على فراشها فى الصباح التالى لعودتها لمنزلها بالقرية، وحزنت بصدق على السيدة الفاضلة التى تُذكر فى قريتنا بأياديها البيضاء، وبما قدمته من خدمات جلية، لكننى توجست مما قد يتبع هذه الحادثة غير المعتادة من معاناة للجميع، وتخوفت مما قد تجره التحقيقات من إقتحام رجال الشرطة للقرية وتغلغلهم - دون رادع - فى أسرارنا وحياتنا الخاصة، وشعرت رغماً عني بالحنق والغیظ من حارس المنزل وزوجته اللذين سارعا بإبلاغ المركز دون أن يرجعا إلىّ أو يقيما لأحد وزنا، ولم يقلل من شعورى ما ذكرته امرأة الحارس من أنها صدمت عندما وجدت المرحومة ميتة، وخزانه ملابسها مفتوحة، كما أن زوجها الذى إستدعته على عجل إكتشف أن الخزنة التى وَضَع فيها مؤخراً مبلغاً كبيراً من المال من إيراد أرض السيدة فوزية بناءً على طلبها كانت فارغة تماماً، وأكتشف الزوجة بدورها ضياع بعض المشغولات الذهبية الخاصة بالمرحومة، وأنهما خافا أن يُتَهما إن لم يبلغا عن الوفاة والسرقه فى أسرع وقت.

ظلت طوال فترة عموديتى أخشى اللغظ و الأقاويل، وأمیل إلى حل مشاكل الناس داخل القرية دون الحاجة إلى تصعيدها، خاصة وأنا أعرف معاون الشرطة الذى أشتهر بتسرع و شططه.

وعندما حضر فهمي بك ومعه أخويه، فإننى سارعت بتحذيرهم من هذا الضابط وتلفه الدائم لأن يثبت مهارته وهمته، خاصةً فى مثل هذه القضايا الشائكة، ومما أعرفه عنه من عدم احترامه لعادات الفلاحين وتقاليدهم، مما قد يغريه بتجاهل وضع المتوفية الإجتماعى، ومراكز أقاربها وعائلتها الكبيرة، وبرغم ذلك فقد وافق البك على تشريح الجثة بسهولة لم أتوقعها عندما طلب منه الضابط ذلك، وإن استخدم نفوذه كأحد كبار رجالات الحزب الحاكم فى تعجل الإجراءات، وتم تشييع جنازة المرحومة بعد ظهر اليوم التالى لإكتشاف الوفاة مباشرة، ونُشر النعى وأقيم سرداق العزاء فى ذات اليوم.

تغيبت السيدة فوزية عن منزلها طوال الفترة الأخيرة بسبب مرضها الذى إستلزم علاجها فى عاصمة الإقليم، وكانت تعطى تعليماتها تليفونيا لحارس المنزل وزوجته فى أول الأمر، وحضر فهمي بك قبل الوفاة بحوالى الأسبوع للإطمئنان على أحوال القرية وتفقد أرضه وأرض إخوته، وأعطى إجازة للحارس وزوجته، لكن الحارس ظل يذهب مع زوجته أحيانا لتنظيف المنزل والعناية بالحديقة، ثم يعودان للمبيت فى منزلهما، حتى حضرت فوزية هانم فى ذلك المساء فجأة، ورآها بعض أهل القرية تهبط من إحدى سيارات الأجرة لتفتح باب الحديقة وتدخل السيارة، ثم شاهدوا السائق يحمل على كتفه حقيبة كبيرة أدخلها إلى المنزل، وعاد إلى سيارته حيث إنتظر خروج سيدة كانت ترافق السيدة فوزية فيما بيدو، وانطلقت السيارة بالسائق والسيدة الغريبة مغادرة القرية.

فى نفس الليلة تلقيت مكالمة تليفونية منها تنبئنى بوصولها، وتطلب أن أرسل الحارس وزوجته لبييتا فى حجرتهما بحديقة المنزل، على أن يوقظاها فى صباح اليوم التالى، حتى تنتهى بعض الأعمال العاجلة، بدالى صوتها ضعيفاً مجهداً فعرضت عليها أن أرسل زوجة الحارس - إذا كانت تريدها - فى الحال، لكنها كررت ما

طلبتة بإصرار، وفعلت ما طلبته السيدة إلا أننى رأيت الاتصال ثانية بها لأطمئننها، لكن أحدا لم يرد على جرس الهاتف، فأيقنت أنها نائمة، وأرسلت أحد الخضر ليتأكد من أن الحارس وزوجته قد وصلا للمنزل، وأصبحا قريبين بحيث يمكن لها أن تطلبهما إن احتاجت شيئاً.

وحدثت الواقعة فى اليوم التالى، بدأت المشاكل وانقلب صفو قريتنا كدرأ، وهدوءها ضجيجاً وصخباً لم ينقطعاً منذ أن اكتشفت وفاة فوزية هانم، وسرقة المال الموجود فى الخزنة والحلي الذهبية، ووجدها معاون الشرطة فرصة لينتقم من شخصى الذى مثل له تحدياً فى أكثر من مناسبة، ولعل تجاهله لعادات الريف و جهله بتقاليده كانا سبب هذا الظن من جانبه.

لم ينس معاون مقتل الخاطئة التى تخلص منها أخوها ليغسل عاره بدمها، ولم يكن أمامي إلا أن أتستر على جريمه وقعت بداع من الشرف والتقاليد الراسخة، فأضطر المحققون أن يقيدوا الحادث ضد مجهول، كما أنه طالما حنق عليّ مهادنة بعض المطاريد حرصاً على صالح أهل القرية، غير مقدر أنه كان أمراً لا مفر منه مهما كان ثقيلاً على نفسى، حتى أجنب القرية مواجهة مع هذه الجماعة من المجرمين الذين لا يراعون شرعاً ولا يردهم قانون إذا ما أحسوا تهديداً أو افتقدوا الشعور بالأمان، وراح يردد الإشاعات والأقاويل عنى، وشجع الأعداء والحاسدين على نفث سمومهم فى أذنيه.

ولعل هذا ما جعله قاسياً متحدياً فى أسلوبه الذى اتبعه فى استجواب أهل القرية، كما كان جافاً معي أنا نفسى، كأنه ظن أنه قد وجد فى آخر الأمر ذريعة يخترق بها سياج العادات التى حكمت منطقتنا بأسرها، وتحدث قوانينه وأساليبه المستحدثة التى عدها الجميع غريبة دخيلة عليهم.

أدرك شيخ الخضر ما تملكنى من هواجس ومخاوف، فجمع كل من شهد على شىء من الحادث مهما كان يسيراً، وجعلهم يعيدون على مسامعة ما قالوه فى محضر الشرطة، وطفق يوفق بين أقوالهم ويحذف منها ما قد يثير الشكوك، أو لا يتفق مع روايات الآخرين، ثم أخذ على كل منهم موثقة ألا يقول أمام النيابة غير ما لقنه إياه، مزج فى ذلك بين التهديد والوعيد من ناحية، والوعد بالمساعدة على النجاة من براثن المعاون ووكيل النيابة من ناحية أخرى، ورغم أن الحارس وزوجته كانا أكثر من أفادوا من هذا الإعداد الجيد وتلك الحيلة من جانب شيخ الخضر - إذ كانا أقرب الجميع إلى المرحومة وأكثرهم قدرة على ولوج المنزل والخروج منه - ممّا جعلها هدفاً متوقّعا لشكوك المعاون، إلا أنّهما أتعباه حتى ظفر منهما بما يريد، وافقت الرجل على ما صنع وعددته من آيات الحكمة والخبرة، فضلاً عن كونه دليلاً على إخلاصه ووفائه وحرصه على مكانتى، وتقديره لصالح الناس فى القرية، وسعيه لتجنّبهم ما أعده لهم معاون الشرطة من شرك.

* * * * *

لاقيت الأمرين من أسئلة المعاون المتكررة فى مناسبات مختلفة، وكأنه يريد أن يوقننى فى خطأ، أو أن يجد تضارباً فى أقوالى، ولما لم تُجد محاولاته نفعاً فقد ركز على تقصي أسرار الخلاف بين المرحومة وفهمي بك، ودور أخويهما الصغيرين فيه، ورغم أنه لم يفز إلا بالندى اليسير من المعلومات، إلا أنّى حرصت على أن أبدو له وكأننى أفضى بكل مكنون صدرى، فلا أخفى عنه شيئاً صغيراً أو كبيراً، وعاهدت نفسى ألا أخبره إلا بما أعرف يقيناً أنه سيصل إليه بسهولة دون الحاجة إلى روايتى، أمّا أسرار الباشا الكبير - والد المرحومة - التى كنت أعرفها عن طريق المرحوم والدي - العمدة القديم - ولا يعرفها أحد سواي فقد ظلت - كما آليت على نفسى - طى

الكتمان، وظلت كل الأقاويل التي أطلقتها أهل القرية على فهمي بك قبل سفرة للخارج وبعده بعيدة عن متناول المعاين ورجالها.

* * * * *

ظل الباشا الكبير - والد فهمي - طوال ثلاثة عقود مرت منذ شرائه الأرض والمنزل في قريتنا حتى وفاته، يعتبر والدي صديقاً وناصحاً، ودأب على أن يترك له التصرف في كل ما استشكل عليه من أمور المعاملات بينه وبين مزراعي أرضه من أهل القرية، ولم يصغ لمحاولات الوقعة بينهما مهما كان مصدرها، وقابل أبى هذه الثقة بأن إعتبر أرض الباشا أمانة في رقبته، وآلى على نفسه أن يحسن إدارتها بما يعود بالخير على الرجل الذي إئتمنه، وعلى أهله من فلاحى هذه العزبة وأهل قريتنا جميعاً.

إشترى الباشا العزبة من رجل أرمنى كان قد حصل عليها سداداً لديون أصحابها الأصليين، وسعد أهل القرية عندما ترك "الخواجة" - كما تعودا أن يطلقوا عليه - أرضه، وغادر قريتهم بلا رجعة، ولم ينسوا أنهم رأوه يستولى على أرضهم بفضل الربا الذى ضاعف ديونهم، وجعلهم غير قادرين على سدادها، ولعل بعضهم شعر بالشماتة عندما تزوجت ابنه الخواجة من موظف نصف متعلم من قرية مجاورة، كان يعمل عند أبيها، ضاربة عرض الحائط بمعارضته لهذا الزواج، وبقيت الإبنة مع زوجها تعاني من الفقر وشظف العيش، بينما غادر أبوها القرية مع باقى إخوتها، بعد أن قبض ثمن العزبة كاملاً من الباشا إلى حيث لا يعلم أحد، وظل سر هذه الزيجة وملابساتها مثاراً للقليل والقال، وندر في القرية من أدرك أسبابها عن يقين، وكان عبد الرحمن باشا أحد من لاكت الألسن سيرتهم بهذا الخصوص..!

* * * * *

قضت ابنة الخواجة الشهور الأولى بعد زواجها فى عاصمة الأقليم، ثم عادت للقرية بعد أن أنجبت بنتاً فائقة الجمال فى نفس التاريخ الذى ولدت فيه ابنة الباشا فوزية هانم تقريباً، وعمل زوجها موظفاً عند الباشا، وشبت ابنتها فى قريتنا فسنحت لها الفرصة لترتبط بصداقة مع ابنة الباشا التى كانت معها فى نفس المدرسة بعاصمة الإقليم، أصبحت الصداقة قوية لدرجة أن ابنة الباشا صممت فيما بعد على الالتحاق بمدرسة للمعلمات رغم عدم موافقة أبيها، وعندما علم الأب أن السبب يكمن فى أن صديقتها نوت الالتحاق بنفس المدرسة بناء على رغبة أسرتها حتى لا تكلفها ما لا تطيق من المصاريف، دعا والد الفتاة إلى منزله، وعقب المقابلة علم أهل القرية أن الفتاتين ستتقلان إلى العاصمة الكبرى للالتحاق بكلية الآداب. لكن ابنة الباشا عاشت بالطبع فى شقة عائلتها بالعاصمة، بينما انتقلت ابنة مرؤوسه لتعيش فى المدينة الجامعية، وهكذا رحب الرجل - مضطراً - بالصداقة بين ابنته وحفيدة الخواجة، وكتب لهذه الصداقة أن تستمر طويلاً وأن تؤثر على مجرى حياة كل الفتاتين فوزية هانم وألفت إمام.

* * * * *

ظل والدى على عهده مع الباشا حتى آخر أيامه، وأذكر أنه تعود أن يحكى لنا عن الاختلاف الدائم بين فوزية وأخيها فهمى، ومدى تأثير وفاة والدتهما - زوجة الباشا الأولى - عليهما، وما تلا ذلك حين تزوج أبوهما بإحدى قريباته، وأنجب منها ولدين، وقد لاحظ أن فوزية كانت ترى أنها لا تقل عن أخيها الأكبر فى شيء، فنافسته فى الدراسة، ومارست من أصناف الرياضة ما لم يكن معتاداً بالنسبة للفتيات، خاصة فى قرية كقريتنا، مثل ركوب الخيل، والركض، وكان تفوقها فى دراستها، وقدرتها على التصرف بحكمة فى أمور المنزل يرجح كفتها عند والدها على أخيها فى كثير من الأحيان،

وكذلك ما سمعناه عن نزوات ابن الباشا، وضعفه أمام غرائزه مما تسبب فى مشاكل عديدة عانى منها الأب، وانعكس ذلك على دراسته فلم ينج من العثرات، واضطر أبوه فى نهاية الأمر إلى إرساله إلى أوروبا ليدرّس الحقوق، وربما أراد بذلك أن يتخلص من مشاكله، ويرتاح من مشاحناته مع أخته، وينقله إلى بيئة لا تستنكر ما جبل عليه من بهيمية ورعونة، وكان الأب سعيداً قانعاً عندما علم أنه أوشك أن يتم دراسته، فلم يعارض فى أن يطيل فترة إقامته ليحصل على شهادة جامعيه أرفع، وقال لى العمدة الكبير ذات يوم أنه يشعر أن الباشا كان فى تلك الأيام سعيداً بحق مع ابنته وولديه الصغيرين وزوجته الجديدة، وكان متاعبه قد انتهت بسفر ابنه فهمي، ولم يعد هناك ما ينغص سعادته.

* * * * *

فوجيء أبى بالباشا يخبره أن ألفت إمام رُشحت لبعثة إلى المملكة المتحدة لتحصل على درجة علمية تؤهلها للتدريس فى جامعة العاصمة، وأن ابنته تريد أن تسافر لنفس الغرض على حسابها، وأدهشه أن يقبل الرجل سفر ابنته وحدها إلى تلك البلاد التى تختلف فى عاداتها وتقاليدها عن مجتمعا، وتساءل لماذا لم يفتن إلى الخطر الكامن فى هذه الرحلة، و قبيل سفر فوزية وألفت عاد فهمي فى إجازة إلى القطر، وأعلنت فى منزل الباشا خطبة فوزية إلى شقيق زوجة أبيها، وفى نفس الوقت أعلن إمام أفندى أن ابنته ألفت قد خطبت لابن عمها، ولم يُقدر لهاتين الزوجيتين أن تتما لظروف طرأت فيما بعد.

سافر الثلاثة بعد هاتين الخطبتين بعدة أيام، فقد رافق فهمي شقيقته فى هذه الرحلة حتى يطمئن عليها قبل أن يعود إلى فرنسا، وقال أبى لنا أنه لا يستعجب سفر ألفت إمام وهى قبل كل شىء نصف أجنبية، أما فوزية فقد كانت فتاة صغيرة نشأت فى بيئة ريفية مغلقة متحفظة، لا يخلو سفرها من خطر إستغرب أن يخفى عن الباشا.

سارت الأمور - فيما سمعنا - فى الغربية بلا مشاكل، وقضت كلتا الصديقتين حوالى الستين لم تقطع خلالها أخبارهما ولا خطاباتهما، ورغم هذا فإن إمام أفندى والد ألفت فتح قلبه لأبى ذات يوم، فشكا من أن ابنته لم ترسل إلى أسرة خطيبها خطاباً واحداً، وأنها تجاهلت موضوع الخطبة فى خطاباتها له ولوالدتها، ورفضت أن تعود فى إجازة الصيف لإتمام إجراءات عقد القران، وصارحه بتخوفه من أن تكون ابنته قد أخذت طريقاً غير الذى رسمه لها، ورغم أنه أقرَّ بفضل الباشا الذى ساعده فى إلحاق ابنته بكلية الآداب وسفرها للخارج، إلا أنه لم يكن مطمئناً لمرافقة فهمي ابن الباشا لابنته وصديقتها فوزية فى السفر، ولعله ربط فى ذهنه بين تمرد ابنته وتباعدها ووجود ابن الباشا قريباً منها، وأشفق والدى عليه فلم يخبره بما طرأ على الباشا مؤخراً من تغير، إذ أصبح دائماً منشغل الخاطر مهموماً، وأنه وصف ألفت ووالدها مراراً بالجحود والنكران، والحقيقة أنه ربط بين هذا التبدل فى شعور الباشا وما علمه من أن أحد معارفه عاد إلى العاصمة الكبرى فى زيارة قصيرة من عمله فى عاصمة المملكة المتحدة، وإن لم يدر بالتحديد ما هى الأخبار التى حملها عن ابنته وأخيها، وما علاقة ألفت إمام بهذه الأخبار، وظل أبى يلوم الباشا الكبير فى قرارة نفسه، وأخذ يردد "أخطاء الآباء مهما طال بها الزمن يرثها الأبناء...!!".

* * * * *

انتقل إمام أفندى إلى عمل آخر فى المركز بعد أن لمس فتور الباشا من ناحيته، وعادت ابنته ألفت من رحلتها بعد أن حصلت على شهادتها وعينت فى الجامعة بالعاصمة الكبرى، كما عادت فوزية بعدها بأسابيع فعينها أبوها مترجمة فى إحدى السفارات الأجنبية، وتأخرت عودة فهمي الذى لاكت الألسن سيرته واكتفتته الإشاعات، ولا

يستطيع أحد أن يجزم بما حدث فعلاً، ولكن المؤكد أن خطبة فوزية فسخت، وكذلك خطبة صديقتها ألفت إمام.

وعندما مرض الباشا وانتقل نهائياً للعيش فى العاصمة الكبرى فإن أسرته إتصلت بفهمى الذى عاد على عجل، وأصرَّ الباشا على تزويج ابنه من إحدى قريباته، وخطبت فوزية لشقيق العروس، وكانت شخصية ابن الباشا الأكبر قد تغيرت تغييراً ملحوظاً، وأصبح مختلفاً تماماً عن ذلك الشاب الأخرق المندفع الذى ترك القرية متجهاً إلى أوروبا، ولكنه ظل بلاشك أقل حنكة وحكمة من والده، كما كانت علاقته بأهل القرية واحترامه لتقاليدهم أقل، وظل تقديره لأشخاص مثل أبى وسائر كبار رجال القرية أدنى من تفهم أبيه لهم وتوقيره لوضعهم، دفع هذا أبى إلى التخلي عن الإشراف على أرض الباشا حتى تركها تماماً بعد وفاة الباشا الذى قضى نحبه بعد مرض طويل، وعندما لحق به أبى فأبنى أصبحت العمدة، ولم يكن من الممكن أن أتراجع عما قرره الأب، رغم أن هذا أثر سلباً على علاقتى بفهمى الذى نال البكوية بعد وفاة أبيه، وأصبح نائباً فى البرلمان، كما أنه إنضم إلى الحزب الحاكم، وصار من ذوى النفوذ حتى قيل أنه رشح للوزارة عدة مرات، وظلت فوزية هانم تمثل له مشكلة طوال هذه الفترة، فقد تركت عملها فى السفارة إلى أحد البنوك بعد فسخ خطبتها للمرة الثانية، ثم عملت فى إحدى المدارس الخاصة، وهناك تعرفت بزميل لها وتزوجته رغم معارضة أخيها، ولم يُكتب لها أن تنجب من زوجها الذى مات على إثر حادث سيارة، فعادت إلى القرية أرملة فى سن الأربعين بلا ولد ولا سند، وعلمنا أنها ستقيم فى منزل أسرتها بالقرية بعد أن اشترت نصيب إخوتها فيه.

قسّمت فوزية هانم وقتها بين عملها فى المدرسة التى تقع فى عاصمة الإقليم صباحاً، والإشراف على ذلك المشغل الذى سعت لبناءه فى القرية فى المساء، واعتمدت فى زراعة أرضها على حارس منزلها

وزوجته، وهو ابن ناظر زراعة والدها الذي عمل تحت إشراف والدى فى إدارة شئون الباشا فى القرية، وعملت زوجة الحارس على العناية بأمر المنزل وحدها أو بمعاونة بعض فتيات القرية.

بعد ذلك بسنوات ظهرت ألفت إمام ثانيةً، وبدأت تتردد على القرية لتساعد فوزية فى الإشراف على المشغل، وعلمنا أنها أصبحت أستاذة فى جامعة الإقليم حيث طلبت نقلها حديثاً، وأنها رُزقت ولدين من زوجها الذى انتهى بالانفصال، وكانت صداقتها القديمة وعملها فى التدريس، والفراغ الذى تشعران به خاصةً بعد انتقال ولدى ألفت إلى العاصمة الكبرى لإكمال تعليمهما، ثم للعمل، إلى أن هاجرا إلى خرج القطر، من العوامل التى ربطت بينهما، فأصبح منزل ألفت الواسع فى عاصمة الإقليم مكاناً مختاراً لصديقتها كلما أرادت قضاء بعض الأعمال هناك، كما كانت فوزية ترحب بها وتستضيفها فى منزلها فى القرية فى مناسبات كثيرة خاصة أثناء عطلة الصيف.

* * * * *

عندما تم زواج فوزية الثانى من شريف بك وهو أرمل كهل من أغنى أغنياء المنطقة، فإن هذا الارتباط ساعدها على توسيع نشاطها فى القرية، ونجحت مساعيها فى إنشاء مدرستين للبنات شملتا المرحلتين الإعدادية والثانوية، وسهّلت لها صلاتها القوية وصلة زوجها بذوي النفوذ فى الإقليم، واستعداده للمساهمة فى مشروعاتها أن تُقدم مزيداً من الخدمات لقريتنا، ولم يغير زواج فوزية كثيراً من صداقتها لألفت، وقد لاحظنا فى القرية وجه الشبه بين الصديقتين، فقد نبهتني زوجتي لهذا التشابه فى الشكل العام، حين قالت عرضاً أن فوزية هانم لا تشبه صديقتها فى الشكل فحسب بل وفى بعض الضباع أيضاً، وأن أهل القرية يخلطون بينهما فى المناسبات التى لا تتيح لهم التحقق من ملامح الوجه، ولعل الشبه انحصر أساساً فى الطول والمشية ونوع الملابس وميلهما كليهما إلى شيء من النحافة، وكانت زوجتي

تؤمن أن طول العشرة يخلق أوجهاً للشبه، وتؤكد أن هناك فعلاً تشابه واضح بين الصديقتين، ولم يخل الأمر من بعض الهمسات الماكرة التي قارنت بين ملامح ألفت وإمام وفوزية، أو "الدكتورة ألفت" و "فوزية هانم" كما تعودنا أن ندعوها، كانت الأولى تتميز بالملاحظة التي اقتترنت بالحزن والهدوء، بينما اتسمت الثانية بالصرامة والجدية وشيء من الاستعلاء والجفاء.

على الرغم من إحساسى أن فهمي بك لم يحسن الظن قط بصديقة شقيقته خاصة وأنا علمنا أن زوج فوزية هانم الأول كان يمت لها بصلة قرابة من ناحية الأب، إلا أنه جاملها فى أكثر من مناسبة، فقد جعل محامية يقوم بالتسويات اللازمة مع أهل زوجها بعد طلاقها منه، ثم بعد وفاته، ليضمن لولديهما حقهما فى مال الزوج، وتوسط لتعيين ولدها الأكبر فى أحد البنوك الكبرى قبل أن يتركه للعمل خارج القطر، وقد أكد بهذا أنه لم ينس أصله الريفى وأن لديه شيء من المروءة والنجدة يدفعه إلى مساعدة صديقة أخته مهما كان الخلاف بينه وبينها أو مع شقيقته، وقال لى شيخ الخضر بإبتسامه ماكرة: " لقد ورث البك شيئاً من صفات والده.. أم لعله عاد إلى ولعه القديم بالجنس الآخر، وتساءلت فى نفسى عما إذا كان فهمي قد أدرك سر رعاية أبيه لألفت إمام فى نهاية الأمر..!.

لا تذكر القرية لشريف بك الزوج الثانى لفوزية هانم إلا خدماته وأياديه البيضاء، فقد ظل الرجل محبوباً طوال الفترة التى عرفناه فيها رغم قصرها، إذ ساعد زوجته فى إنشاء مدرستين للبنات فى القرية، وحتى ألفت نفسها لم تمنعها قرابتها من زوج فوزية الأول من الاعتراف بفضله، والإشادة به قبل وبعد وفاته، ترك الرجل أثراً حميداً فى نفوس الجميع، ولم تطل تلك الزيجة التى رضى عنها أهل فوزية وأهل القرية ورأوها مناسبة من كل الوجوه إلا أعواماً قليلة، وما لبثت فوزية

أن عادت إلى الوحدة والوحشة، وإن زادت ثروتها أضعافاً مضاعفة بعد وفاته.

* * * * *

لم يبق عندي من أخبار أسرة الباشا إلا ما يخص الخلاف المزمناً بين فهمي وفوزية والذي عاد إلى الظهور قبيل وفاتها في ميدانه القديم - في القرية - فقد حاول الأخ الأكبر أن يفرض نوعاً من الوصاية على أخته التي رفضتها بإصرار وواجهته بقوة، وكان الرجل يبدأ عنيفاً قاسياً وكأنه لن ينتهي، لكنه سرعان ما يرضخ وينسحب تاركاً أخته وشأنها، وسط دهشة الجميع، كان دور أخويه الصغيرين ثانوياً في الصراع، فقد نأيا بنفسيهما عنه بعد أن تركا أرضهما لأخيهم الأكبر يديرها ويعطيهم إيرادها، أمّا الصدام الأكبر فكان عندما إتهم فهمي أخته بأنها شجعت ابنه الأكبر على عصيانه والتمرد على رغباته، وأنها أيدته وساندته عندما قرر الالتحاق بمعهد للفنون المسرحية، كما وقفت معه في رغبته الزواج من إحدى زميلاته ضد رغبة أبيه، ودعت خطيبته إلى منزلها في القرية مع أسرتها عدة مرات، وزاد الطين بلة ما عرفه أخوها من نيتها أن توصى بأملاكها للجمعيات الخيرية بعد وفاتها، غير أن معاناتها في الفترة الأخيرة من حياتها، ومرضها بارتفاع ضغط الدم والسكري، دفعاه إلى تناسي أسباب الخلاف، فعادها عدة مرات مع زوجته وأولاده، ويُقال أنها أجلت رصد كل ما تملك لأعمال الخير حتى لا تثير حفيظة الإخوة، وإن لم تعدل عن هذه الفكرة نهائياً.

ولم تتميز الأعوام الأخيرة في حياة المرحومة بأحداث خاصة، وإن كان دور ألفت في حياتها قد تزايد بصورة ملحوظة، وكان هذا طبيعياً حيث أن مرضها اضطرها إلى الاعتماد على صديقتها بشكل أكبر من ذي قبل، وذلك للإشراف على المشغل والمدرستين، وكان ظهور رجل غريب قيل أنه قريب ألفت إمام، وتردده معها على منزل

المرحومة ملفتاً للنظر، إلا أن فوزية نفسها قالت لزوجة الحارس أنها تكلفه ببعض المهام المتعلقة بمساهمتها في بعض الجمعيات في عاصمة الإقليم، وأنه بحكم عمله كمحاسب في أحد بنوك المدينة أخذ يسجل لها حساب التبرعات التي تودع في حساب خاص في البنك الذي يعمل به، كما أنه تعود ألا يحضر وحده إطلافاً، ولم يدخل المنزل إلا مع ألفت أو برفقة محامى فوزية هانم، كما أنه تعود أن ينتظر "الهانم" في غرفة الاستقبال وأن ينصرف فور إتمام عمله حسبما شهد الحارس وزوجته.

ظل الحال على هذا المنوال حتى وجدت المرحومة أنّ حالتها الصحية تحتاج رعاية لا تتوفر لها في القرية، فتوجهت إلى عاصمة الإقليم بعد أن أوصت الحارس بجمع إيراد الأرض وإيداعه خزنتها الموجودة في غرفة المكتب، كما طافت مع زوجته المنزل لتعرفها المواضع التي تركت فيها مقتنياتها الثمينة حتى تضمن مسؤوليتها عنها، وأغلقت أبواب الغرف وباب المنزل الرئيسى، وتركت مفتاح باب المطبخ للحارس وزوجته، كما تركت له نسخة من مفتاح غرفة المكتب وخزنة النقود.

بعد سفرها بعدة أيام حضر فهمي بك إلى القرية وقابلنى، كما قابل ناظر زراعته الذى اختاره للإشراف على أرضه وأرض أخويه، واستفسرت منه عن صحة شقيقته فأكد أنها بخير وتحسن، كان ابنه قد سافر في بعثة لدراسة الفن المسرحى في أوروبا، فرأيت أن من اللائق أن أسأله عنه، رغم علمى بعدم رضاه عن اختياره لهذه الدراسة، فطمأننى شاكراً بتكلفه المعهود، و طلب الحارس الخاص بمنزل شقيقته، واطمأن منه على أحوال أرضها ومنزلها، وقال له أنه يمكنه أن ينتقل إلى داره مع زوجته، وأن يترك حراسة المنزل مؤقتاً حتى تعود الهانم، وشعر الحارس بالتشاؤم حين رأى هذه الرغبة منه كدلالة على أنه لا يتوقع لأخته شفاءً سريعاً، وإن ارتاح لعدم اضطراره للمبيت أمام المنزل كل يوم، فقد كانت أحوال الأمن مطمئنة في

القرية مما جعل وجوده بصفة مستمرة عبئاً لا مبرر له، ووعده الحارس أن يمرّ على المنزل باستمرار، كما ظل يتصل بفوزية هانم لإطلاعها على كل ما يجد، وتلقى أوامرها مرة كل أسبوع.

** ** * * * *

حدث بعد ذلك ما حدث، ووجدنا ضابط الشرطة بيننا من جديد، افتحمت أسئلته كل شئون المرحومة الخاصة بصورة متحدية لم يراع فيها - كعادته - أيّاً من عادات الريف وتقاليده، وأحسست رغم كل المظاهر الخادعة أنه سيعود من تحقيقاته كلها بخفى حُنين، وأنه سيضيف إلى ما عنده سبباً آخر يحمله على التحامل عليّ، واتهامي بعدم احترام "قانونه" أو التعاون مع رجال الشرطة، لكن هذا لم يمنعي من أداء واجبي، فقد استدعيت من أعرفهم من المطاريد الذين أكدوا لي أن أحداً منهم لم يكن له علاقة بموت فوزية هانم أو سرقة ممتلكاتها، وأقسم "كبيرهم" على هذا بأغلظ الأيمان، كنت أميل لتصديقهم كما أنني - رغم حنقي على الحارس وزوجته - كنت واثقا أنهما فوق الشبهات، وتساءلت رغماً عني عن سر هدوء فهمي بك الظاهر طوال الإجراءات التي كانت ثقيلة على قلوب أهل القرية، كما عجبت لاختفاء الدكتورة ألفت إمام التي لم تحضر دفن صديقة عمرها ولا عزاءها، وتمنيتُ أن يفلح شيخ الخفر مع رجاله في معرفة سائق السيارة التي حملت المرحومة مع رفيقتها إلى منزلها حيث قدرّنها أن تقضي ساعتها الأخيرة وحيدة بلا رفيق أو صديق.

علمتُ أنّ تقرير الطبيب الشرعي نفى وجود علامات تدل على جريمة قتل أو إنتحار، وأنه عزا الوفاة إلى هبوط حاد في وظائف القلب، وشمل التقرير تفاصيلاً عن حالة الجثة وقت نقلها للمشرحة لم يكن لها قيمة أو وزن،.. أصبح التحقيق الآن مُنصباً على السرقة التي أكتشفت مع الوفاة، وسألني شيخ الخفر بعد أن أطرق طويلاً: "هل تظن أن لفهمي بك يداً في ترتيب الأمور بهذه الصورة ؟" .. لم أدر بماذا أجيبه فساد بيننا صمت طويلاً..

فهى عبد الرحمن

رحم الله شقيقتى التى لم ترح نفسها ولا من حولها طيلة حياتها القصيرة، فمن يصدق أنها مرت بكل هذه الخطوب، وتسببت في تلك الأحداث التى شغلتنا وإستحوذت على قدر لا يستهان به من إهتمامنا ومشاعرنا، ثم ماتت ولم تتجاوز الخمسين إلا بأعوام قليلة، ولا أنسى أنها ظلت في بؤرة إهتمامات والدى الباشا طوال طفولتنا وصبانا ومطلع شبابنا، ثم جعلت من نفسها معيناً لا ينضب للقلق والخلاف حتى ماتت بتلك الصورة العاصفة، فأحزنى فراقها وإفتقدتها رغم أننا نادراً ما كنا نتفق على أمر، أو تخلو علاقتنا من المكدرات والخلافات.

رغم أننى وفوزية شقيقان إلا أننا اختلفنا في كل شئ منذ البداية، فبينما بدأت هى حياتها متحدية رافضة، ثم تحولت بتأثير ظروفها إلى تلك الشخصية الناقمة المنعزلة المتعالية الحزينة، التى أورثتها تجاربها في الحياة مرارةً وميلاً إلى التكتّم والتباعد حتى عن أهلها وذويها، وظلت في أيامها الأخيرة أسيرةً لتلك الذكريات تستعيدها، وتعيش فيها، حتى انعزلت تماماً عمّن حولها، وتقوّعت داخل شرنقة من صنع أفكارها، لكنها في أواخر أيامها تحولت بصورة مفاجئة إلى شخص مختلف تماماً، فقد أخذت تسعى إلى البحث عن الصداقة والمودة فيمن حولها، وتحاول أن تخدم مجتمعا الصغير بتلك المشروعات الخيرية التى بدأتها في القرية، ثم توسّعت فيها، ولعل اندفاعها المفاجئ جعلها فريسة للاستغلال ممن أحاطوا بها في تلك المرحلة، مستغلين ضحالة تجاربها وتلفها لاقتحام ميادين لا خبرة لها بها، فخاضت معاركها "الدون كيشوتيه" التى ميزت أيامها الأخيرة باستماتة ورعونة.

لم توهب فوزية جمالاً أخذاً ولا ذكاءً حاداً، لكنها كانت ذات إرادة حديدية، وطبيعة متسلطة، لم ينج منها كل من عاصرها حتى أبى رحمة الله، رغم أنه سمح لها بالانطلاق بدافع الحب والرفق كيفما شاءت، وإن فعلت ذلك بصورة لفتت أنظار الفلاحين وجعلتنا هدفاً لألسنتهم الحداد، حين رأوا ابنة الباشا تركب الخيل في رانعة النهار، وتمر على العمال الزراعيين وهي في ملابس الرجال، وتمادت شقيقتي فمارست رياضة الركض على الطريق الزراعي، كما أنها تعودت أن تزور منزل تلك السيدة الأرمنية الأصل لتستريح عندها عقب هذه الرياضات التي لم تمارسها فتاة في القرية قبلها، وتصادقت مع ابنة هذه السيدة التي كانت - بالمصادفة - في مثل سنها، بل لقد صممت على دخول مدرسة للمعلمات في عاصمة إقليمنا لولا تدخل أبى الذى التزم بمساعدة والد صديقتها - كاتب المزرعة - حتى يدخل ابنته كلية الآداب في العاصمة الكبرى، وسعر - لدهشتي - حتى وجد مكاناً لها في سكن الطالبات الجامعي، كل هذا ليرضى أختنا، ويقنعها بالالتحاق بالكلية التي تناسبها، دون أن يحرمها من صداقة هذه الفتاة حفيذة الخواجة التي ظل يرعاها بعد ذلك وكأنها ابنته إرضاء لفوزية، ولعله وجد في رعايته لها وعطفه عليها إرضاءً لمشاعره التي كان لا يحب أن يفصح عنها لأحد مهما كانت صلته به، ولم أفهم سر هذا كله إلا بعد ربح طويل من الزمن.

ظهر عناد فوزية أيضاً في إصرارها على السفر للملكة المتحدة مثل صديقتها، رغم معارضة خطيبها آنذاك، وعدم اقتناع والدى الذى خضع - لدهشتنا جميعاً - لرغبتها في النهاية، وكانت علاقتنا أثناء هذه الفترة متوترة بصورة تقرب من القطيعة، لكننى سافرت معها إلى المدينة التى تدرس بها حتى أطمئن أبى أننى أرهاها، وظللت على اتصال دائم بها أثناء وجودى بفرنسا، رغم أنها افتعلت المشاكل والمشاجرات كلما ذهبت لزيارتها، والغريب أن صديقتها "ألفت"

كانت هي التي تسعى للصالح بيننا في معظم الأحيان، ولا أريد أن أخوض في تفاصيل لاداع لها عن هذه الفترة، ويكفي أن أذكر أن خطيب أختي الذي عين في السلك الدبلوماسي طلب مني أن أقنعها بالسفر معه إلى إحدى دول أفريقيا، لكنها رفضت، مما أدى إلى فسخ الخطبة بينهما، والغريب أنها بعد ذلك أخذت موقفاً عدائياً من والدها ومنى دون ذنب أو جريرة .

** ** ** **

عندما عادت صديقة أختنا إلى العاصمة الكبرى فإنها عيّنت بعد حصولها على الشهادة التي سافرت من أجلها في جامعتها، ووجد أبي أن عليه أن يجد وظيفة مرموقة لابنته تشعرها بأنها ليست دون صاحبته رغم تفوق ألفت الملحوظ في دراستها، لكن فوزية رحمها الله تركت كل شئ وانتقلت تدريجياً إلى التدريس في إحدى المدارس الخاصة، ولم أفهم سر تصرفاتها ولا ردود فعلها الغربية طوال حياتها، ولم أر قط سبباً معقولاً يُبرر تركها لوظيفتين كلتاهما خير مما اختارته لنفسها في النهاية .

وفيما يختص بي فإنني - دون دخول في تفاصيل لامبرر لها - عشت حياتي بجميع مراحلها دون تعقيد أو سخافات، لأنكر إنسياقى وراء أهوائى في فترة الشباب، وعدم اكتراثي بما أشاعته عنى زوجة أبى، ولا ما ظننته أختى، لكننى غيرت مسارى في الوقت المناسب، ونعمت بما أتاحة لى أبى من تعليم متميز، ومكانه إجتماعية وسياسية مرموقة، فبذلت الجهد في الدراسة حتى حصلت على أعلى الشهادات، وتجاهلت مشاعرى ورغباتى الشخصية لأحقق أمل أسرتى، وأحافظ على مكانتنا ونفوذنا، وبهذا فقط أيقن كل من حولنا أننى إنسان قوى جدير بالثقة، وأمكن لى أن أتجاوز ضعف أبى نفسه، وتجاوزات شقيقتى التي لم تخف عن أحد، وحتى زوجة أبى فإنها

اعترفت لى بالفضل والمروءة، وأولتني ثقتها بعد أن رأت ما فعلته من أجل ولديها - إختوتى - عقب وفاة والدنا.

أذكر أننا تشاجرنا - فوزية وأنا - مرة في شبابنا أمام أبى وزوجته، فأخذنا الباشا إلى غرفة مكتبه بعيداً عن الزوجة والأخوة الصغار، وطلب منا أن نشرح سر هذا النقار المتكرر والخلاف الذى لاينتهى، وكانت أختنا سابقةً إلى الحديث فعيرتني بما تعرفه عن "سلوكياتى" التى لم تعجبها، مثل سهرى في عاصمة الإقليم، وما يقال عن "شلة الأصدقاء" الذين أفضى معهم هذه السهرات، وكادت أن تتجرف لتحكى عما يتخيله القرويون يدور في هذه السهرات، لولا أن قاطعها أبى بحزم طالباً منها ألا تخوض فيما لا يليق بالفتيات المهذبات مثلها، وألا تنسى أنها ما زالت مجرد طفلة لاتفقه من أمور الدنيا إلا أقل القليل، وأن الناس - شاءت أو لم تشأ - سيحكمون عليها بما تتفوه به، وكونه يناسبها أو لايناسبها كفتاة مهذبة من أسرة محترمة، لامن ناحية صدقة أو كذبة، وأمرنا أن نحجب خلافتنا عن أخوينا حتى لا نهزأ احترامهما لنا، وأن نراعى مكانتنا في نظر أهل القرية وكل من يعيشون معنا في المنزل، لكنه - رحمة الله - كان ضعيفاً أمامها وأمام زوجته الثانية، كما كانت ذكرى علاقته القديمة بسيدة من ساكنى قريتنا، والتى لم يعرف عنها أحد شيئاً، إلا قلة معدودة من أصدقائه، قد تركت أثارها على نفسه، وظلت مخاوفة من أن تفضح تلك القصة القديمة تؤثر على قراراته وتصرفاته، لم أحاول من ناحيتي معرفة صاحبتة القديمة، ولا ما كان يخيفه من أمرها، لكنه أفضى إلى بمكنون صدره في آخر أيامه، ولعله لم يفعل ذلك إلا بعد أن شك أننى عرفت بالأمر كله، وأراد أن يشرح لى ظروفه ويبرر سلوكه آنذاك، أصغيت إلى حديثه واستكترته بقدر ما هائنى وأذهلنى، لكننى فهمت سر كثير مما لم أستطيع إدراكه في حينه، أحزنتنى أن أكتشف ذلك الضعف الشائن في أبى، إذ ظل حتى

آخر العمر أسيراً لأوهام وخيالات يصعب التحقق من صحتها، وقد دفعنى هذا إلى محاولة إحتواء نتائج هذا الضعف بنفس القدر الذى سعيت فيه، إلى مداره فوزية والتستر على أخطائها.

تعودت فوزية على إتهامى بالجمود والقسوة، ولم يفضبنى هذا لأننى أدركت أنه نابع عن أحساسها بالإحباط، وفشلها المتكرر في حياتها، وشعورها أنها لم تجن من تمردھا وجموحھا في الماضي إلا الجراح والالام، وظل ضعفها وحاجتها إلى مساعدتى من آن لآخر يضغطان على أعصابها، ويشكلان ردود فعلھا المتشنجه تجاه نجاحى في حياتى الخاصة والعامة، وما من الله على به من نعم.

ظلت فوزية دائماً غاضبة وغير راضية، لعل حرمانها المبكر من أمنا كان سبباً، ولعل شعورها بأنها تفتقر إلى الجمال الإنشوى جعلها تسلك سلوكاً أشبه بالرجال، كما زاد حرمانها من الإنجاب من حدة طباعها، لكننى واثق أن تردد أبى وضعفه أمامها هما اللذان أتاحا لهذه الصفات أن تنمو وتستفحل بغض النظر عن أسبابها .

* * * * *

وإذا نسيت فلن ينسى الناس قصة زواجها الأول من زميلها في إحدى المدارس التى عملت بها، كانت تعلم أننا لن نرضى عن هذا الارتباط، فأخفت كل شئ عن نيتها في مراحلها الأولى، مما يدفعنى إلى الظن أن الزيجة لم تكن سوى تعبير عن سخطها على أسرتها، ورفضها لما يفرضه وضعنا الإجتماعى عليها من قيود، ويؤكد ظنى هذا عدم الانسجام الذى كان بادياً منذ المراحل الأولى لهذا الزواج، كان الزوج قريباً لوالد ألفت، كما علمت أنه عضو نشط في أحد الأحزاب المعارضة وقتها، ونشرت له جريدة هذا الحزب بعض المقالات النارية في قدح الحزب الحاكم وبيان عيوبه، وأطلقت صحيفتنا على زوج شقيقتى وأصدقائه تسميه "اليساريين المتطرفين"، لكننا لم

نعرف عنه أى نشاط خلاف هذه المقالات فى الواقع، وعندما توفى مع مجموعة من أصدقائه فى حادث سيارة، فإن جريدتهم نعتهم فى صفحتها الأولى وأطلقت عليهم إسم "الشهداء"، وأحاطت بالحادث - كما توقعنا - بعض الأقاويل والتلميحات تتهم الحزب الحاكم بتدبيره، وصدرت بعض الردود الساخرة من صحيفتنا بالطبع مؤكدة أن تقارير الطب الشرعى والتحقيقات أكدت أن الحادث كان مجرد قضاء وقدر، وأنه نتج عن خطأ الزوج نفسه، وهو الذى قاد السيارة فى رحلته الأخيرة، ما يهمنى هو ان أؤكد أن شقيقتى لم تكن سعيدة فى تلك الزيجة غير المتكافئة حسبما نما إلى علمى من أصدقائها، وضاعف عدم إنجابها من شقائها وتباعدها عن زوجها .

بعد هذا الحادث بفترة طويلة زارتنى فوزية لتشكرنى على وقوفى إلى جانبها بعد وفاة زوجها، وعرفت منها أنها ترغب فى الانتقال إلى قريتنا لتعيش هناك، ورغم أننى أخبرتها أن الأحوال قد تغيرت فى القرية، ولم يعد هناك إحترام للأسر القديمة كما كان الحال فى الماضى، وحذرتها من أن العمدة الجديد يختلف عن والده بما عرفته عن علاقاته المريبة مع المطاريد، وجنوحه إلى سلوكيات لم تكن مقبولة أو معتادة أيام كنا نعيش فى القرية، ليحقق من خلالها مصالحة بغض النظر عن أثر هذا على قريته وأهلها، إلا أنها أصرت على رغبتها ورجتتى أن أساعدها على الانتقال إلى هناك، فلم أجد مفراً من أن أعدها بفعل كل ما أستطيعه لأحقق لها رغبتها أملاً فى أن نفتح صفحة جديدة فى علاقتنا معاً.

سعيت فى وزارة المعارف لتعيينها فى مدرسة تقع فى المدينة الأقرب إلى قريتنا متعللاً بظروفها الأسرية، واستأجرت لها شقة قريبة من مدرستها الجديدة، وفضلاً عن ذلك، فإننى اتفقت مع أرملة أبى وأخويننا الصغيرين على أن نبيع نصيبنا فى منزل الأسرة لها، وقسمت الأرض بما يجمع لها نصيبها فى قطعة واحدة قريبة من المنزل.

وهكذا رضينا جميعاً أن نتنازل عن جزء من حقنا فى سبيل توفير الراحة و الإطمئنان لها فى مكانها الجديد، بما يليق بإبنة عبد الرحمن باشا، بل أننى كلفت محامىً بمتابعة مشاكل إحدى صديقاتها مع زوجها حين أبدت رغبتها فى ذلك دون مناقشة، راجيا أن نكون قد طويينا خلافاتنا إلى الأبد.

وكالعادة فإن فوزية أدّخرت لى وللأسرة بعض المفاجآت، فقد إتهمتنا بمحاولة فرض وصايتنا عليها تمهيدا لأن نرثها، وبلغنى أنها تبرعت بجزء من الأرض المحيطة بالمنزل والتي تنازلنا لها عنها، لتقيم عليها مشغلاً للقرويات، وفى إحدى المناسبات أخبرتنى أمام زوجتى وأولادى أنها ستتنازل عن كل ما تملكه للجمعيات الخيرية، مهددة بأننا لن ننال من إرثها درهماً ولا ديناراً، ورغم أننى لم أصدّ الخلاف بيننا وتجنبتُ الدخول فى مهاترات، إلا أنها شجّعت أكبر أولادى على الالتحاق بمعهد للدراسات الفنية رغم علمها بمعارضتى، ودفعته إلى الارتباط بزمينة له فى نفس المعهد، وهى تعلم أن والدتها كانت تعمل كمغنية وراقصة فى أحد المسارح الرخيصة، وزاد الطين بلة أنها تنازلت عن شقتها فى عاصمة الإقليم لصديقتها القديمة ألفت التى انفصلت عن زوجها مؤخراً، وأصبحت ترافقها فى كل تحركاتها فى المدينة، وقد قابلت ألفت فى إحدى المناسبات فأبدت حرصها على عدم الدخول فى مواجهة معى، وعرضت مساعيها للصلح بينى وبين شقيقتى، مؤكدة أنها ممتنة لما فعله المحامى مع أهل طليقها بعد وفاته، مما ضمن حقوق ابنيها منه، ولم أدر مدى صدقها لكننى أعربت عن قبولى لوساطتها بينى وبين فوزية فوعدتنى بالرد علىّ فى أسرع وقت، وكانت لبقة ودودة بأكثر مما توقعت.

* * * * *

كانت زيجة فوزية الثانية هى أول ثمرات التصالح بيننا، وشعرت أنها ربما تكون قد عادت الى رشدها أخيراً وأرادت ان تعيش فى سلام مع نفسها ومع أهلها، وظل زوجها الثانى يقضى معظم وقته فى منزلها

إرضاء لها، وكان منزله فى قريته القريبة أكبر وأوسع، لكن فوزية لم تحب الإقامة فيه بسبب وجود أولاده من زوجته الأولى، وأستطاع الزوج الثانى أن يترك أثراً طيباً فى نفوس الأهل جميعاً، إذ نأى بنفسه عن كل الخلافات بجميع أشكالها، فظل صديقاً للجميع، ولم يُقدَّر لفوزية أن تُرزق منه بأبناء مما أصابها بنوع من اليأس عبرت عنه بالإنهماك فى الأعمال الخيرية، مثل إنشاء مدرستين للبنات بالقرية، ومضاعفة نشاطها كعضو فى عدة جمعيات، ومن خلال هذا النشاط تعرّفت بأحد أقارب صديقتها ألفت من ناحية الأم، كان شاباً قارب الأربعينيات من عمره يعمل فى أحد البنوك الأجنبية، وقد وكلته فى عمل الحسابات الخاصة بهذه الجمعيات، وظلت العلاقة فى البداية سطحية لا تتجاوز المعاملات الروتينية، وعندما مات شريف بك، وشعرت شقيقتى بالوحدة التى ضاعفتها علاقاتها المتوترة مع الجميع، كان ابنى الأكبر يستعد للسفر إلى بعثته للخارج، وانشغلت ألفت بإمتحانات كليتها مما حرمها من أقرب الناس إلى نفسها، وجعلها فى حاجة إلى من يؤنس وحشتها، ولعل هذا قرّب بينها وبين هذا الشاب الذى كان يستكمل أوراق الهجرة الى إحدى البلاد النائية، لكن الأمر لم يتعد بعض المقابلات فى حضور ألفت فى المدينة، وفى منزلها أثناء مرضها بالقرية، وأما ما قيل عن علاقة خاصة أو زواج سرى فقد أهملته تماماً، ولم آخذه على محمل الجد مطلقاً، فقد عانيت أنا نفسى من مثل هذه الإشاعات فى مرحلة من مراحل حياتى!

والمهم أنها رحمها الله ظلت نهياً لقلق لا ينتهى طوال حياتها، ورمزاً للتمرد والرغبة فى تدمير الإطار الاجتماعى لأسرتها، وعندما أكتشفت السرقة مع الوفاة، فإن حارس المنزل المذعور وزوجته اتصلا بالشرطة، وبذلك أدركت أن روح شقيقتى أبت إلا أن تودعنا فى صخب وضجة تذكرتى بخناقاتنا القديمة أمام أبى.

لا أحب هنا أن أتطرق إلى ما اعتبره فضحاً لأسرار عائلية دون مبرر، مثل ما أشاعة البعض عن سر خطبتى للدكتورة "ألفت إمام" أثناء وجودنا خارج البلاد، وتأكيدهم أن هدفى كان إثبات كذب

الإشاعات التي ربطت والدتها بأبي، كذلك فإنني لا أرى الآن ما يدعوني إلى التبرع بتقديم تفصيلات أو تبريرات لتلك العلاقة التي إنساق إليها أبي في الماضي، فتركت ذلك الأثر المدمر على حياته وانعكست على أسرته، فما يزال يعزّ عليّ أن أفصح نقطة ضعف خطيرة في ذلك الإنسان الذي طالما أحببته ووقرتة، ومهما حدث أو قيل فهو أبي الذي سيظل رغم كل شيء مثلاً أعلى لي ولأولادي شئت أو لم أشأ، ولم يعد من حق أحد بعد وفاته أن ينبش هذه الأمور دون وجه حق، وأما فوزية فإنني آليت على نفسي أن أحميها من نفسها، وأن أمحو آثار أخطائها وإن اضطرتت إلى أن أقسو على من حاولوا استغلالها والاستفادة من نقط ضعفها، سواء قبل وفاتها أو بعدها، وحتى على أولئك الذين حاولوا فضح أسرارها عن جهل وغيباء، أو عن عمد وسوء نية.

ومن ناحية أخرى فإنني قد علمت بما قيل في القرية وخارجها من أنني قد تلقيت نبأ وفاة فوزية بفتور وبرود يقريان من الإرتياح، وأن سروري بخلاصى من مشاكلها لا يعادله إلا سعادتى بميراثى منها، وأننى لم أظهر أى نوع من الحزن الصادق لتلك الوفاة المأساوية المفاجئة، والحقيقه أننى من واقع معرفتى بظروف شقيقتى الصحية، وبمدى مرضها ومعاناتها، توقعت هذا الأمر منذ مرضها الأخير، وفى النهاية.. فإن حزنى لم يكن ليغير شيئاً مما قدر لها، وهى التى خطت مصيرها بعنادها وتحكماتها التى كانت عبئاً على نفسها وعلى الآخرين.

لكننى بعد ما حدث لا أملك إلا أن أترحم على فوزية التى ما زالت لها معزتها فى قلبى، ومهما بلغ الخلاف بيننا فإننى أدرك أنها عاشت حياة فارغة شقية، وأنّ تصلبها وجنوحها إلى التطرف فى حياتها لم يتعبانا بقدر ما أتعباها وأشقياها، فماتت بتأثير الإجهاد والتوتر والأمراض التى أصابتها فى هذه السن المبكرة نسبياً دون أن أراها سعيدة أو قانعة فى أى مرحلة من مراحل حياتها.

رشدى حامد

عندما أنهيت دراستى فى الكلية، اعتبر أبى الذى يعتز بالقضاء عملى فى الشرطة مجرد خطوة تمكنى من زيادة حصيلة تجارى، تمهيدا لأن أنتقل إلى سلك القضاء، ولم يعترف أبداً بفشل مساعيه فى هذا السبيل، كنت ابنه الوحيد الذى ظل الأمل يراوده فى أن يكون القاضى رقم ٤ فى العائلة، كان أبى قاضيا - كما دأب على وصف نفسه - أباً عن جد، ولم يكن من المغمورين فى سلك القضاء، إذ سجّل لنفسه مواقف مشهودة، آخرها عندما تولى إحدى القضايا السياسية الشهيرة، ورفض الخضوع لضغط وزير العدل آنذاك، وكان حكمة حاسماً ضد رجال جهاز الأمن القومى، حين قضى ببراءة المتهمين، وأدان سبل القبض عليهم، والتجاوزات التى إرتكبها رجال هذا الجهاز أثناء إستجوابهم، ولم تطق السلطات صبراً فعاقبته بنقله إلى الشئون القانونية فى إحدى الوزارات، وعندما تولت حكومة حزب الأغلبية الحكم أعادته إلى مكانه فى سلك القضاء، ورفق حتى وصل إلى رئاسة محكمة النقض، مما جعله يقول لى فى فخر وثقة: "إن أباك كان يوماً ما قاضى قضاة القطر" .. وبعد إحالته المبكرة إلى المعاش، افتتح مكتباً للمحاماه فى عاصمة الإقليم الذى عُينت فى أحد مراكزه معاوناً للمباحث.

كانت أصولنا ترجع إلى هذه المنطقة، فقد نشأ والدى فى قرية قريبة من القرية التى عاش فيها عبد الرحمن باشا مع أسرته، وعرف إبناه من زوجته الأولى فهمي و فوزية، وطالما أفاض فى وصف المتاعب التى قاسى منها الباشا بسبب خلافات فوزية مع فهمي، وقد إفترض أن قرار الوالد بإرساله إلى فرنسا لدراسة القانون كان موفقاً، وحكى بعض ذكرياته القديمة مع فهمي عبد الرحمن، عندما حضر كطالب

مستجد لدراسة القانون في السوربون، وكان والدى يستعد للحصول على درجة الدكتوراه من نفس الجامعة، وظل يتمتع بأن يفيض في سرد ما تعرض له من إجراءات بالعمل والبقاء جعلته يمكث لمدة طالت حتى بلغت العامين، مترددا بين البقاء في فرنسا والعودة إلى عمله في كلية الحقوق، كما قابل في تلك الإثناء فوزية وألفت عندما حضرتنا بدورهما للدراسة في المملكة المتحدة التي زارها قبيل عودته إلى الوطن نهائيا ليعمل في سلك القضاء، مفضلاً ذلك على التدريس في الجامعة، ولا يلبث أبى أن يضيف أن التغيير الذى طرأ على شخصية فهمي بعد عودته كان مذهلاً، فقد تحول من شخص مستهتر لا يهتم إلا بإشباع رغباته والجري وراء نزواته، إلى رجل مُحَنَّك صعب المراس يسعى إلى دخول البرلمان والمشاركة بفعالية فى الحياة السياسية للقطر، لكنه من ناحية أخرى أصبح قاسياً لا يعرف الرحمة فى التعامل مع أعدائه، وإن غدا معروفاً - ولو ظاهرياً - بالالتزام فى حياته الخاصة، أما ألفت وفوزية فقد كان يرى أنهما تعرضتا لكل أنواع سوء الحظ، وعندما علم بوفاة الثانية قال فى حزن وثقة: "لعلها تشعر الآن لأول مرة بالراحة...!"

ومن الغريب أنه أوصانى ألا أحاول مواجهة قوى لا أقدر على دفعها مكرراً: "أن الزمن غير الزمن.. وقد عرفنا قديماً أعداء الحق وأصدقاءه، أما الآن فكل شئ غامض، والفساد قد نخر فى عظام المسئولين حتى النخاع، والحق ضائع كاليتيم فى مأدبة اللثام".

* * * * *

كثيراً ما أطلعت أبى واستشرته فى كل ما أقابله من قضايا وتحقيقات من خلال عملى، فقد أخبرته بأمر المدرّسة التى أبلغ خالها عن غيابها، وذكرت له أن والدها وإخوتها لم يظهروا قلقاً أو جزعاً، وأكدوا أنها تعودت على السفر فى رحلات مع زميلاتهما، وكانت هذه أول حادثة فى القرية التى عاش فيها عبد الرحمن باشا وأسرته، والتى

طلما سمعت عنها من أبى، وقبل أن أذهب إلى القرية حضر أحد الخفراء مع خال المفقودة، وأبلغانى أنهما يشكان أن الفتاة قتلت ودفنت فى جرن القرية أمام منزل العمدة مباشرة، ونصحنى أبى ألا أتعب نفسى كثيرا فى محاولة العثور على الجثة، وصارحنى أنه يظن أن الفتاة قد قتلت بدافع الشرف، وهذا يجعل العمدة ورجاله مضطرين إلى التستر على القاتل الذى لابد أن يكون أحد أقارب الفتاة، وصدق ظنه تماما فقد تظاهر العمدة بالتعاون الكامل وساعدنا فى حفر الجرن ركنا ركنا، وبعد أن أيقنا بفشل مسعانا، صمم على دعوتنا لوجبة دسمة على فراندة منزله أو " الشكمة" كما كانوا يدعونها، وكنا قد أشرفنا على عملية الحفر والتقيب على الجثة من فوقها.

وعقب عودتنا إلى المركز بعد المغرب حضر الخفير المبلغ نفسه ثانية، وأقسم بأغلظ الأيمان أن الجثة نقلت من مكانها ودفنت تحت بلاط الشكمة قبيل حضور القوة بساعات قليلة، وأن العمدة فرش السجاد فوق البلاط حتى يخفى الأسمنت الذى كان ما يزال رطبا، وعدنا أدراجنا إلى القرية، وكان الدم يغلى فى عروقى لخداى بهذه الطريقة التى أحسست أنها لا تخلو من سخرية، لكننى فوجئت بالشكمة محفورة بالفعل، وحضر العمدة ليخبرنى أنه تلقى بلاغا أن الجثة مخبئة تحت البلاط مما دعاه إلى التفتيش عنها، وإنه لم يجدها قبل أن يعيد الخفير استدعائنا، وأدركت أن الجثة قد أعيد نقلها إلى مكان آخر فى غيبة الخفير الواشى، وأن العمدة يسخر منى للمرة الثانية.

ضحك أبى عندما حكيت له ما حدث، وذكّرنى بنصيحته لى بهذا الخصوص، وأخذ يقارن بين العمدة الحالى ووالده، وخلص إلى الفرق بينهما مثله مثل الفرق بين زمنين أو أسلوب عصريين مع بقاء القيم والتقاليد كما هى.

** ** * *

عرفت عن العمدة ما لم يخطر لأبى على بال، كانت صلات الرجل بالمطاريد أعمق وأكبر مما ظنناه فى بداية الأمر، فقد عرفت بطريق الصدفة البحتة أنه يمول تجارة السلاح التى يديرها كبيرهم، ويبدو أن الأرباح الطائلة التى جناها العمدة جعلته يتغاضى عن أن تجارة السلاح ليست رائجة فى كل الأوقات، ويقبل أن يستغل جزء لا يستهان به من أمواله فى تجارة المخدرات، وكان " ميثاق الشرف " الذى يراعيه المطاريد مع ممولهم هو ألا تطفأ الأسلحة أو المخدرات أرض قريته بصورة من الصور، كما علمت بتورط شيخ الخضر الذى شارك فى هذه التجارة، وتعود أن ينوب عن العمدة، و يأخذ القرارات فى غيابه، ولم يكن هناك سبيل إلى قطع هذه الدائرة الخبيثة إلا ضرب المطاريد فى الجبل، أى فى عقر دارهم ووسط قلعتهم الحصينة، ولم يكن المسئولون للأسف مهيين لهذا فى واقع الأمر، فقد صرح لى أحد كبار ضباط الشرطة من رؤسائى أن هذا الهجوم لابد أن يكون ناجحاً بنسبة مائة فى المائة، وأن أى فشل معناه انهيار التوازن القائم بين المطاريد بنشاطهم الخفى وابتعادهم عن المدن والقرى القريبة من المركز، وبين سكوت الجهات المسئولة عمّا يمارسونه لكسب عيشهم، على أن يتم خلسة وخفية، وهذا الإنهيار يؤدي لكسر قواعد هذه المعادلة وإلى مواجهة علنية عنيفة يدفع الأهالى ثمنها، ولا يمكن تجنبها أو التخفيف من آثارها، وطالما أن القضاء على المطاريد جميعاً يتطلب إمكانيات تفوق المتاحة حالياً، فإن هذا الهجوم لابد أن يؤجل حتى يتم التنسيق بين رجال الشرطة وقواتهم من ناحية، وقوات إضافية من الجيش بإمكانياتهم الفائقة من ناحية أخرى، وطبعاً فإن إقناع المسئولين باتخاذ مثل هذا القرار ليس بالأمر السهل.

وإلى أن يشعر حكام القطر بضرورة مثل هذا التحرك فسوف يظل العمدة ورجاله ينعمون مع المطاريد بثمار تجارتهم المحرمة ولو كره الكارهون.

الغريب أن بعض رجالنا أكدوا لنا أن العمدة يقود حملة " دعائية " موجهة ضد رجال الشرطة (وأنا على رأسهم) متهماً إيانا بعدم احترام العرف، وازدراء التقاليد والقيم التي عاشت بها هذه المنطقة طويلاً، كما خصّني بتهمة التسرع والشطط والعنف، وأننى أحقد على العائلات الكبرى خاصةً إذا كان لها تاريخ قديم وأصل عريق، وقد عانيت إلى حد ما من جراء هذه الأقاويل قبل حادثة وفاة السيدة فوزية عبد الرحمن شقيقة فهمي بك، وكانت قد وُجِدَت ميتةً بالقرية عقب وصولها إلى منزلها فى الليلة السابقة عائدة من عاصمة الإقليم، وأبلغ حارس المنزل وزوجته كذلك عن بعض السرقات.

* * * * *

بدأت عملى فى حزم وحرص حتى لا أدع للأقاويل أن تشينى عن اتخاذ كل ما من واجبى أن أفعله فى مثل هذه الحالات، وضعت منزل المرحومة تحت الحراسة المشددة حتى حضر الطبيب الشرعى الذى شارك فى فحص الجثة فى مكانها، كما رُفِعَت البصمات عن كل ما أحاط بفراش السيدة فوزية ومن باقى الغرف ومن غرفة المكتب والخزنة، ولم نعثر إلا على بعض دفاتر الحسابات مع مجموعة من الصحف والمجلات.

فتشنا باقى المنزل دون أن نظفر بشيء له قيمة، ووافق فهمي بك على قيام الطبيب الشرعى بتشريح الجثة، وقال لى أنه إنما فعل ذلك حرصاً على أن يتأكد أن وفاة شقيقته طبيعية، وحتى لا تساوره الشكوك مستقبلاً هو أو سائر أفراد أسرتها فى أنها قد تكون تعرضت للقتل على يد أحد اللصوص، ودعاني إلى التركيز على هذه النقطة، وعدم الخوض فيما لا داع له من خصوصيات أخته وأسرتها، ولا شك أن نفوذه كان له أكبر الأثر فى تعجل الإجراءات، حتى تم دفن السيدة فوزية، وحفل سرادق العزاء بالشخصيات المعروفة مع مشاركة كبيرة من رموز الحزب الحاكم والوزراء.

* * * * *

علمت من استجوب الحارس المرتعب وامراته أن سيدتهما كانت غائبة فى عاصمة الإقليم للعلاج، وأنهما تغييا فى الآونة الأخيرة فقط عن المنزل بناء على إذن من فهمي بك شقيقتها، لكنهما كانا على اتصال دائم بالمرحومة التى كانت مقيمة فى شقة صديقتها ألفت، وأن الحارس أخبرها أنه حصل بعض الإيجارات من مزارعى أرضها فطلبت منه إيداعها الخزانة الموجودة فى غرفة مكتبها، كما طلبت أن يجعلوا المنزل فى القرية جاهزاً لاستقبالها لأنها قد تعود فى أية لحظة، وقبل الوفاة سافر أبن فهمي الأكبر الذى كان كثير التردد على عمته - كما علمنا - إلى الخارج، كما أن صديقتها ألفت سافرت إلى العاصمة الكبرى لمقابلة ابنها الذى حضر فى زيارة قصيرة، وقد فكر الرجل وزوجته فى زيارتها، وعرضاً عليها الأمر هاتقياً، لكنها أخبرتهما أنها ستعود قريباً إلى القرية، وطلبت منهما ألا يتكافا مشقة السفر دون داع، وعندما علما بوصولها فى تلك الليلة أسرعاً إلى المنزل، فوجدوها لم تشعل نور الحديقة كعادتها، كما أن السيارة التى أفلتها كانت قد انصرفت، ولم تجبهما عندما طرقتا باب المنزل، ففضلاً الانتظار للصباح ظناً منهما أنها نائمة.

أكدت زوجة الحارس أنها لم تدخل المنزل إلا فى صباح اليوم التالى لإيقاظها، وأنها فوجئت بعد صدمة وفاة سيدتها بخزانة الملابس مفتوحة ومصاغها مفقودة، كما اكتشف زوجها أن خزانة النقود فارغة، وعندما أفاقت من الصدمة، وبدأت تستوعب ما حولها سارعت مع زوجها إلى الاتصال بالشرطة على عجل، خوفاً من أن يتسبب التأخير فى ضياع معالم أية جريمة قد تكون أرتكبت، ونفياً كلاهما أن يكون للمرحومة أية أعداء، أو أنهما يشكان فى أحد بصفة خاصة.

أستجوبنا الرجل الذى شاهد السيارة التى حملت المرحومة إلى منزلها للمرة الأخيرة، فلم يتذكر رقمها، ولا ملامح السائق، ولا وجه

مرافقة المرحومة، لكنه لاحظ كبر حجم الحقيبة التي حملها السائق في صعوبة بالغة، ولم يستطع تقدير الفترة التي قضتها السيارة أمام المنزل، لكنه قال أنها وصلت بعد صلاة المغرب حين ساد الظلام القرية.

باءت محاولات العثور على سائق السيارة أو الاستدلال على مكانه بالفشل، وجاء تقرير الطبيب الشرعى، فأرجع سبب الوفاة إلى هبوط فى القلب، وأفاد أن هناك آثار سحجات فى الظهر والفخذين، وكان توقيت الوفاة كما قدره الطبيب الشرعى غير دقيق، مما عزى إلى حرارة الجو الذى ربما أدى إلى إسراع التغيرات التى تعقبها، كان التقرير مختصراً للغاية بسبب تعجل الدفن.

أخبرت أبى فى المساء بما وصلت إليه، فإتفق معى على أن العمدة لا يتعاون بقدر يظهر، وأنه وراء إحجام كثير من أهل القرية عن الإدلاء بشهاداتهم، وطلب منى ألا أتسرع وأن أكون صبوراً، وتوقع أن أصل إلى الكثير من الحقائق بعد استجواب طبيب المرحومة وصديقتها ألفت، وكل من تعامل معها فى الأيام الأخيرة من حياتها، ودعانى إلى التفاؤل لأن هؤلاء الناس بعيدون عن تأثير العمدة ورجاله، وأضاف فى لهجة ذات مغزى: "أنهم قد يكونوا بعيدين عن تأثير فهمي بك أيضاً".. وشعرت أن حديثي معه لم يبدد حيرتى، فظللت نهباً للهواجس حتى ساعة متأخرة من الليل.

* * * *

تأخر حضور الدكتوراة ألفت من العاصمة، وظلت شقتها مغلقة، وأكد حارس المنزل أنها سافرت بعد وصول صديقتها فوزية بحوالى عشرة أيام، أى أنها تركت فوزية فى الشقة قبل سفرها لقريتها بحوالى الأسبوع، واتجهت إلى العاصمة الكبرى لتقابل ابنها الذى حضر فى زيارة قصيرة للقطر، بعد يومين حضرت إلى مكنتى سيدة

فى أوائل الخمسينيات متشحةً بالسواد، كانت هذه أول مرة أراها فيها، أظهرت ملابس الحداد بياض بشرتها المشربة بإحمرار خفيف، ورغم علامات الحزن والاستسلام، فإن ملامحها ولون شعرها وعينيها وتقاطيع وجهها الدقيقة بدت متناقضة إلى حد ما مع ملابسها الشرقية المتحفظة، ولم يمنع جو التحقيق المنهك عيناى من ملاحظة بعض مظاهر الضيق والضحجر والحذر التى بدت على وجهها، وجعلتلى أحس أنها تخفى من الحقائق أكثر مما تبوح به.

لم يزد ما أدلت به من أقوال عما جاء فى أقوال العمدة وشيخ الخفر وحارس المنزل وزوجته، كانت والمرحومة صديقتين حميمتين لفترة طويلة، قويت العلاقة عندما تزوجت صديقتها من أحد أقرباء أبيها، وعندما عادت فوزية لقريتها بعد وفاة الزوج فإنها شاركتها نشاطها فى القرية وخارجها، مثل رعاية المشغل ومدرستى البنات، وبادلتها فوزية شعورا بشعور ورعاية برعاية، فوقفت إلى جانبها عندما انفصلت عن زوجها، وعاونتها فى إيجاد شقة مناسبة لها ولولديها، وعندما تزوجت صديقتها من شريف بك فإنها عهدت إليها برعاية الجمعيات الخيرية التى أشتركت فيها فى فترات غيابها.

خلال معاناتها الصحية الأخيرة فإن فوزية فضلت البقاء فى شقتها هى فى عاصمة الإقليم، رغم أن طبيبها كان قد أوصى بنقلها إلى المستشفى، كانت المرحومة تحس مع صديقتها بالراحة والإطمئنان، وحضر أخوتها مع أسرهم لزيارتها عدة مرات أثناء مرضها، واتفق فهمي بك مع الطبيب على أن يختار ممرضة لرعايتها، كما أنه أحضر فتاة عن طريق حارس العمارة لتنظيف المكان والعناية بمأكل أخته وملبسها، ولم تمنع الدكتورة ألفت برغم أن هذا الوضع اقتحم خصوصيتها، لكنها كانت تعتبر المرحومة أختاً لها، ولولا أن أبنها عاد فجأة فى أجازة إلى العاصمة الكبرى لما كانت قد تركت فوزية وهى فى هذه الحالة، لكنها اطمأنت إلى رعاية الطبيب المنتظمة

ووجود الممرضة والخادمة، وانتوت أن تعود فى أسرع وقت ممكن لولا أنها اضطرت للبقاء فترة أطوال مما حسبت فى العاصمة، وعندما عادت علمت بوفاة صديقة العمر بعد أن تركت شقتها عائدة إلى القرية لآخر مرة، وكأنها اختارت أن تموت هناك...

كنت قد رأيت فوزية هانم قبل ذلك فى لقائين عابرين فلاحظت الشبه الواضح بينها وبين صديقتها فى الطول والقوام والمشية، ورغم اختلاف ملامح الوجه ولون الشعر والبشرة، إلا أن الناظر لا يستطيع التمييز بينهما إلا عن قرب، خاصة إذا إرتدت الدكتورة تلك الطرحة التى غطت بها لون شعرها، ولا شك أن الطبيعة جادت على ألفت بنصيب وافر من القسامه والملاحة ينم عن جمال أخاذ فى أيام الشباب، فتذكرت ما تميّزت به ملامح المرحومة من جهامة وصرامة اختلطاً بشيء من التعالى.

ظل الحزن والقلق مرتسمين على وجه ألفت وهى تودعنى برغم الإبتسامة الشاحبة التى كانت تضىء وجهها من حين لآخر، وخالجنى شعور بأنها تخفى عنى سراً لا يعرفه أحد سواها، ودعوت الله ألا أخرج من هذا التحقيق صفر اليدين كما يتمنى معظم من قابلتهم من أهل القرية، وعلى رأسهم العمدة وصديقه شيخ الخفر.

* * * * *

على عكس ما توقع أبى فقد كان لفهمى بك بصورة غير مباشرة تأثيراً حسناً على سير التحقيق، فإن توتر علاقته بابنه الأكبر كانت وراء حرص الأخير على الحضور للإدلاء بأقواله، قرر الإبن أنه كان فى بعثه لدراسة الفن المسرحى عندما بلغته وفاة عمته، فعاد برغم أن الوقت كان حرجاً بالنسبة لدراسته، لكنه لم يستطع أن يؤجل حضوره، ولا أن يهون على نفسه، خاصة أن عودته القصيرة لن تغير شيئاً مما حدث، واعترف أنّ والده دأب على محاولة إملاء رغباته

وآرائه على الجميع، ولم يطق رفض شقيقته لوصايته عليها فيما يتعلق بأرضها التي ورثتها عن أبيها وزوجها شريف بك، وأن هذا أثار ثائرتها وكان سببا فيما أعلنته عن نيتها التبرع بأرضها للأعمال الخيرية كرد فعل ورفض لهذه الوصاية، خاصة وأنها علمت بنيته بيع أرضها وأرضه إلى أحد أقربائهم مقابل ثمن مفر، وذلك حين شرع فى إنشاء شركة خاصة به، وأكد أنّ طباع عمته التى بدت حادة ومتصلبة إنما انفجرت نتيجة لشعورها أن أخاها حريص على مصالحه هو أكثر من حرصه على علاقته الإنسانية بها وبالأخرين.

وعرض فى أقواله بالدكتورة ألفت التى كان يستغرب ثقة عمته فيها وحبها لها، وأضاف أنها - حسبما يظن - كانت تلعب دائماً دور حمامة السلام بين أبيه وعمته لأغراض بعيدة تماماً عن ظاهر الأمور، كما أنها كانت تستغل عمته إلى حد ما، إذ لاحظ أنها كانت تحرص على أن تكون هى الفائزة فى النهاية فى كل معاملاتها معها، وصرح أنها كانت تتعامل مع أبيه نفسه بنوع من الألفة وكأنها أحد أفراد العائلة، وحاولت أن تكسب ثقته وأن تنتفع من وراءه..!.

تمنيت بعد شهادة الفتى أن أجد السائق المفقود، أو أن يهدى الله العمده أو أصدقاء المرحومة وأخوتها حتى يطلعوننى على ما يرشد خطاى إلى السبيل المستقيم، ودعوته سبحانه وتعالى ألا أضطر إلى تسليم ملف القضية إلى وكيل النيابة وهى بهذا الغموض والتفكك.

ذهبت لمناقشة زميل دراستى القديم، وكيل النيابة الذى كنت أتوسم فيه الصدق رغم ميله إلى التقلص بعض الشيء، وحدث ما توقعتم تماماً فقد نصحنى ألا أتجاوز حدود سلطتى، وأن ألتزم اللباقة والحصافة فى كل خطواتى، وبعد أن أكد على ألا أخوض حروباً "دون كيشوتيه" لا مبرر لها ولا طائل من ورائها، قال شيئاً مفيداً فى النهاية إذ طلب منى أن أحاول ان أسجل كل شهادة أجدها مفيدة على شريط تسجيل (كاسيت)، بالإضافة إلى تدوينها وتوقيع الشاهد عليها

كالمعتاد فى محضر مؤرخ ومعتمد، وقد إتَّبعْتُ هذه الطريقة مع الطبيب المعالج لفوزية عبد الرحمن، وكذلك مع مأمور الشهر العقارى الذى حضر من تلقاء نفسه.

قال الطبيب أن حاله السيدة فوزية شُخصت من البداية على أنها ارتفاع مفاجئ فى ضغط الدم، وأنه نصح بإدخالها المستشفى على الفور لعلمه أنها كانت تعاني من ارتفاع السكر فى الدم وقصور الشرايين التاجية، وذلك حتى يتم التحكم فى حالتها ومتابعتها بالأبحاث، وأن المريضة فضلت البقاء فى منزل صديقتها مع تناول العلاج، ورغم أن أخاها فهمي بك حضر بعد ذلك وأدرك خطورة الحالة، إلا أنه لم يضغط عليها أو لم يستطيع إقناعها، وترك لها أن تقرر ما تراه أنسب لها، لكنه طلب بقاء ممرضة ذات خبرة فى هذه الأمور معها حتى تشرف على تناولها العلاج، وأفاد أن حالة السيدة فوزية لم تكن تسمح لها بمغادرة المنزل حين تركها آخر مرة، وأنه أوصى أحد زملائه بالإشراف على الحالة لحين عودته من مؤتمر طبى عقد قبل وفاتها، وعند عودته فوجئ بخبر وفاتها، وقال ان زميلة أخبرته أنها لم تسمح له بزيارتها سوى مرة واحدة كانت حالتها أثناءها مستقرة، لكنها كانت تشكو من الأرق، أمّا بعد ذلك فقد اعتذرت له بحجج شتى، وقال له أنه بالطبع لم يصرح لها بالعودة إلى القرية أو الخروج من المنزل أصلاً.

أما مأمور الشهر العقارى فقد حضر عندما علم بوفاة فوزية، وقال أنه قابل المرحومة فى مكتب الشهر العقارى بعاصمة الإقليم حيث سجلت عقداً باعت فيه أرضها ومنزلها إلى أخوها فهمي، وأن فهمي بك كان ينتظرها فى سيارته لكنه لم يدخل المكتب معها بل حضر فى اليوم التالى مع محاميه فلم يلبث طويلاً، وترك المحامى يتابع تسجيل العقد بتوكيل عام منهما.

عندما رأى الرجل صورة فوزية فإنه نظر إليها بحيرة قبل أن يقول أنها كانت ترتدى طرحة سوداء تخفى معظم وجهها، لكنه لم يستطع الجزم أنها هي من حضرت للشهر العقارى، كان تاريخ عقد التنازل يرجع إلى ما قبل سفر فوزية إلى القرية بيوم واحد، مما تركنى فى ارتباك شديد وبدت الأمور أكثر غموضاً فى نظرى عن ذى قبل.

عدت فى سيارتى بعد أن سجّلتُ رقم وتاريخ الملف تمهيدا لتسليمه للنيابة، واحتفظت لنفسى بصورة منه مع الشريط الذى سجلت عليه شهادة الطبيب ومأمور الشهر العقارى، وعزمت على أن أعرض الأمر على أبى وأن أشاوره فى الأمر عسى أن أخرج من حيرتى...

** ** ** **

أطرق أبى طويلاً بعد أن سمعنى، وقال لي أنه يعرف محامى فهمي بك لكنه لا يظن أنه سيفيدني فى شيء، ونصحني أن أسأل سائق فهمي الخاص الذى كان يعمل قبل ذلك مع أحد أقربائنا، وفى النهاية سألتنى بصراحة: "هل تشك فى أن وفاة فوزية لم تكن طبيعية..؟" ..

وترددت فى الإجابة، ولا بد أن إمارات العجز ظهرت على وجهي، فعاد يقول: "لقد استغربت عندما رأيت اهتمامك مُنصباً على الأحداث التي سبقت وفاتها، وظروف هذه الوفاة وكأنك نسيت موضوع السرقة تماماً..!!".

تحدثت مع أحد المحامين الصغار من مكتب محامى فهمي بك، وقابلت السائق الذى أشار على به أبى، فأصبح لدى رصيد من التسجيلات لا بأس به عند عودتى لمكتبى، أرفقت صورة الملف مع الشرائط فى مظروف أرسلته إلى مكتب أبى مع أحد الجنود، وأخذتني بعض الأعمال اليومية الروتينية حتى كدت أن أنسى موعدى مع صديقى وكيل النيابة فى نادى القضاة، حيث نوبنا تناول الغداء

سويًا، وفى الطريق إلى النادي أحسست كأن فرامل السيارة لا تعمل، فحاولت إبطاء السرعة تدريجياً، لكنني وجدت نفسي أندفع إلى جانب الطريق حتى أتجنب سيارة ضخمة أتت مسرعة من حيث لم أتوقع، استخدمت فرملة اليد فى محاولة يائسة لإيقاف السيارة قبل أن أفقد الوعي تماماً.

عندما أفقت وجدت نفسي في غرفة صغيرة ورائحة أدوية التخدير تتخلل أنفي، وصداع قاتل يكاد يفتك برأسي، استسلمت للنوم لكنني استيقظت بعد فترة لأجد أبي يبحث عن مفتاح المصباح الكهربائي لينير الغرفة، أشرت بيدي إلى مكان المفتاح فشعرت بألم يجتاح ساعدي صاعداً إلى كتفي، وأحسست بالأربطة التي تحيط ذراعي الأيمن وتلف ساقي الأيسر، حضر الطبيب مساءً، كنت قد غفوت ثانية ثم استيقظت على صوت الممرضة تتلو عليه ما تناولته من حقن وأدوية، وفتحت عيني لأجدها واقفة بجواره بينما راح هو يشرح لأبي شيئاً عن حالتي، لاحظ الرجلان عيني المفتوحتين فتسابقا فى طمأننتي وبث الثقة فى نفسي، سألت أبى عن صورة الملف والشرائط فطمأننى أن كل شيء قد وصله، أغمضت عيني وأنا أدعو الله ألا يكون ما حدث لى سيتركنى عاجزاً أو يُخلف لى عاهة أو إعاقة.

لم أحس أنني فى طريقى إلى استعادة حواسى بصورة مطمئنة إلا صباح اليوم التالى، كان أبى جالساً يُغالب النوم على مقعد بجوار فراشى، فلم أتمالك أن سألته نفسى عما إذا كان هناك شيء فى الدنيا يساوى ما أنا فيه الآن، وما يعانیه أبى فى سنه هذه من قلق ولهفة، حكيت له عن بعض ما قاله المحامي والسائق حتى أسري عنه لكن محاولتى لم تفلح، ظل وجهه عابساً متجهماً كعادته إذا ما نوى أمراً لا يريد أن يطلعنى عليه،

رجوته أن يتمدد على أريكة خصصت للمرافقين، فلم يأخذ بنصيحتى إلا بعد إلحاح، وراح يحكى لى عن ذكرياته بذهن شارد

فتأكدت أن هناك ما يشغله بالفعل، ضعف صوته شيئاً فشيئاً فأدركت أنه يغضو رغماً عنه.

سرت إلى عدوى النعاس فرأيت في منامي العمدة ورجاله يتحدثون، وقد جلسوا في منزل فوزية عبد الرحمن، عن سر غاب عني وأعيانى الوصول إليه، وعندما اقتربت من الجمع فوجئت بهم ينفجرون في قهقهة رجت أرجاء المنزل، ألمتني سخريتهم وكدت أنسحب لولا أننى اصطدمت بإنسان كان يقف خلفي، استدرت فوجدت نفسى فى مواجهة ألفت إمام التى ابتمت معذرة وسارت مبتعدة، حاولت ملاحظتها لكنها أشارت إليّ محذرة وعلى وجهها نظرة غاضبة، فجأة تبينت أنها هي المرحومة نفسها، تبدلت ملامح الوجه وتغير لون الشعر وانسحبت أطرافها حتى بدت كفقاعة ما لبثت أن انفجرت تاركة رذاذاً خفيفاً على وجهي، استدرت ناحية العمدة ومن أحاط به من الخفر فرأيتهم يتوارون وقد حمل كل منهم شيئاً من محتويات المنزل، انحبس صوتي وضعفت أطرافى فلم أحرك ساكناً أو أنبس، واستيقظت على صوت أبى يوقظنى فى رفق بعد أن أفلقتة حشرجة صوتى وحركتى القلقة، سألتنى باسمًا عما أزعجنى فاعتدلت فى جلستى حتى لا أزيد من توتره، سمحوا لي بكوب من العصير كنت في حاجة ماسة إليه، وعاد أبى يحكى لي عن بعض ذكرياته.

** ** * *



ألفت إمام

بدأت جذورى فى القرية عندما تجاسرت ابنة الخواجة الثرى فأحبت "إمام أفندي صابر" الذى يعمل عند أبيها، مما أثار القيل والقال فى قريتنا، وقد سمعت عن أمى كل أنواع القصص التى يمكن أن تروى عن مثل هذه الزيجة فى قرية من ريف القطر، فمن الناس من يؤكد أن المسألة تعدت كونها قصة حب برىء، وأن الفتاة الصغيرة إنجرفت وراء عواطفها فلم يكن أمام أبيها إلا الموافقة على زواجها من إمام الذى لم يكن يرضيه كصهر قط، أما من كانوا قريبي الصلة بأسرة الخواجة فيؤكدون أن الزواج تم بعد ممانعة من الأب إذ اضطر فى النهاية إلى الرضوخ لرغبة إبنته التى أفصحت عن عدم اكتراثها حتى لو انتهى الأمر بأن يحرمها من ميراثها منه، وأن تقطع صلتها نهائياً بإسرتها، فغادر القرية مع جدتى وأخوالى، ولا أدرى هل كان هذا من حسن الطالع أم عقاباً من السماء لأمى على عقوقها وعنادها، دفعنا نحن ثمنه بعد ذلك، ولا داعى لذكر تلك القصة الخرافية عن عبد الرحمن باشا، والتى أكّدت لى والدتى أنها محض افتراء واختلاق، وأن بعض النسوة رددنها كراهية فى أسرتها وخاصةً والدها.

نشأت فى أسرة شبه معدمة، إذ عمل أبى بعد أن سكن القرية مع زوجته فى مزرعة عبد الرحمن باشا، وظل يعمل بها حتى اضطر لترك عمله فى النهاية بسببى، ورحل مع والدتى وإخوتى إلى عاصمة الإقليم حيث وجد عملاً بديلاً بعد ذلك بفترة، ولعل أكثر ما سبب الألم لوالدى هو أنهما لم يصدقا فى أول الأمر أن الخواجة - جدى - سوف ينفذ وعيده، ويحرم ابنته من نصيبها فى ميراثه، وظلا ردحاً طويلاً يحملان بعودة جدى الغاضب، أو أحد أخوالى للقرية حاملاً معه ما

ينقلهما من العوز والفقر إلى طبقة ميسورى الحال، ذلك الحلم الذى لم يتحقق أبداً، وعندما حضر ابن خالى أخيراً بعد أن كاد العمر ينقضى، لم يحمل معه إلا أسوأ الأخبار، كان جدى قد مات بعد أن أفلست تجارته وضاعت مدخراته، وعمل أفراد الأسرة فى أعمال صغيرة ليعولوا أنفسهم، ثم لحقت جدتى بزوجها بعد فترة قصيرة عانت خلالها من المرض والحاجة، كما عانت من القهر، وتركت أبناءها يجاهدون لتدبير معاشهم، ولم يفكر أحد أخوالى فى الاتصال بنا وكأننا ورثنا مع الفقر تحجر قلب أبيهم وقسوته، أو لعلهم لم يجدوا فى أنفسهم الجرأة على مقابلة أختهم بعد أن أصبح حالهم لا يفضل حالها بشكل من الأشكال.

عُرفت فى القرية كإحدى الطالبات الفقيرات فى مدرستها الابتدائية، ولم يميزنى عن زميلاتى إلا تصميمى على إكمال تعليمى وحرصى على التفوق، شعرت أننى فيما عدا هاتين الصفتين أقل من زميلاتى فى كل شئ تقريباً، والحقيقة أننى كنت أحس بالفارق ينمو، والهوة تزداد عمقاً كلما إنتقلت إلى مرحلة جديدة، فقد كان فقراء الفلاحين يتركون بناتهم يذهبن للمدرسة الابتدائية ليتعلمن القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب يفيدهن فى حياتهن، لكن زميلاتى فى المرحلتين الإعدادية والثانوية كن أيسر حالاً وأحسن مظهرًا، مما ضاعف إحساسى بوجود حاجز لا يمكن اختراقه يفصلنى عنهن.

الغريب أن الزميلة الوحيدة التى قدّرت تفوقى، وحسبته ميزة لأتذكر هي ابنة الباشا الذى كان أكثر رجال القرية ثراءً ونفوذاً دون منازع، كذلك فإن "فوزية" دأبت على أن ترسل إلىّ فى مطلع كل عام طقمًا جديدًا من الملابس المدرسية والمنزلية، فنقلت بذلك مظهرى إلى مستو لم يخطر لى على بال، والغريب أننى كنت أحس أنها تملك حاسة التقدير لشعور الآخرين بحيث لم أشعر معها بالفارق الاجتماعى

أو المادى، كما كنت أشعر به مع من هن دونها في الغنى والجاه، كانت تشعرنى - دون قصد - بأننى أملك ما أحسد عليه من الجمال والعقل الراجح، وتتبأ لى بمستقبل باهر بتواضع وتلقائية أقنعانى بمواصلة الجهاد، فتجاهلت غمزات الزميلات اللاتى كنّ مصرات على ألا يرين فى أكثر من تابعة لابنة الباشا، لم أشعر بحساسية تجاهها رغم أن الجميع كانوا يعلمون أن أبى مجرد مستخدم في بعض أملاك والدها الباشا، وأننى عندما أدعى للمذاكرة معها في منزلها فإنما يكون هذا نوعاً من الإحسان، وفرصة لتناول طعام فاخر، والاستمتاع بالجلوس في مكان مهياً للدرس والمذاكرة، لايتاح لمن كان مثلى إلا في الأحلام، ويكفى أن أسذكر دروسى بعيداً عن ضجة الإخوة الصغار، والواجبات المنزلية التى لا تنتهى في ذلك المنزل الفقير الضيق الذى أقطنه مع أسرتى.

* * * * *

عندما ذهبت إلى العاصمة الكبرى لألتحق بالجامعة، فإننى أدركت أن الباشا قد دفع لأبى مصاريف الدراسة ورسوم المدينة الجامعية حيث أقمت في غرفة مستقلة لأول مرة في حياتى، قدمتنى فوزية لزميلاتنا على أننى زميلتها في الدراسة الثانوية، وأنا نشأنا في نفس الإقليم، كان من الواضح أنها لن تجد أى عناء أو صعوبة في شق طريقها ومواصلة التعليم حتى الحصول على أعلى الشهادات، أما أنا فكان عليّ ألا أنسى أننى سأظل أنوء بفقر أسرتى، ما لم أجاهد وأثابر حتى أستطيع إتمام تعليمى الجامعى، وأحافظ على المجانية عاماً بعد عام، حتى أنال شهادة ترفع من قدرى، وتعيننى على المساهمة في إعالة أسرتى، ورفع مستوى معيشتها، كانت خطابات أبى لاتفتأ تذكرني أنه قد أجهده السعى لسد احتياجات إخوتى من ضروريات الحياة، فضلاً عما يرسله إليّ من نفقات من حين لآخر، وكم سائلت نفسى طوال هذه الفترة ما إذا كنت قد نلت حقاً إعجاب فوزية إلى الدرجة التى تنسيها الفارق الإجتماعى بيننا، وترفع من شأن

علاقتنا من زمالة دراسة إلى صداقة حقيقية، لكننى على أى الأحوال سعدت بأن وجدت نفسى وسط مجتمع جديد لايحاسبنى على تاريخ أسرتى، ولا على مستواها الاجتماعى، وفوجئت بأننى أستطعت فى سهولة ويسر أن أكتسب مودة زميلاتى، عدا ما لاحظته من أن ملامحى الغربية اجتذبت أنظار بعض الزملاء الذين عبّروا عن إعجابهم بطرق شتى ترواحت بين النظرات الحاملة والإبتسامت الخجولة التى لم تثر فى نفسى سوى الدهشة، ولم تلق إلا التجاهل، إذ ذكرتنى بما لقيته أُمى من جراء انجرافها وراء عواطفها، وما لقيناه - إختوتى وأنا - من الفقر والمعاناة فى حياتنا من جراء عدم درايتها، وزواجها من رجل شبه معدم.

توفرت على الأستاذكار مستفيدة من الهدوء والراحة، وبما نعمت به من "رخاء" لم تحسه زميلاتى فى المدينة الجامعية ممن تعودن التدليل فى منازلهن، وكُرِّست وقتى لاستيعاب الدروس، وأنا لا أصدق أننى وجدت نفسى أخيراً أعيش وسط زميلاتى اللاتى يقدرننى ويحترمن تفوقى، وتحت إشراف أساتذة يفتحون لى أبوابهم فى غير وقت المحاضرات دون تأفف أو ضجر، وتجاهلت ما همست به بعض الزميلات عن إعجاب هذا الزميل أو تدليل ذلك الأستاذ.

علمتنى حياتى فى القرية أن أنسى كل مالا طائل من ورائه، أو أن أتأساه وكأننى لا أحسه تماماً، وفى إجازة الصيف كنت لأتحدث مع إختوتى أو والدى عن الجامعة إلا فيما ندر، كان أبى مكتفياً بنجاحى وبتقديرأتى العالية سعيداً بهما، وظل قصارى ما يطمح إليه هو أن يرانى مدرسة فى إحدى المدراس القريبة من القرية، ثم زوجة وأماً حتى يشعر إنه أدى رسالته نحوى، لم أحاول من ناحيتى أن أجادلة أو أحاوره حتى نجحت فى السنة النهائية، وحصلت على الشهادة الجامعية، مع تعيينى معيدة فى كلية الآداب فى العاصمة، وترشيحى لبعثة إلى المملكة المتحدة.

** ** * *

لم أفاجأ بمعارضة والدى وانسياق والدتي وراء رأيه، علمت أنهما مشفقان من الأعباء المالية، ومتلهفان على راتب المدرسة وحصيلة الدروس الخصوصية، واجهتهما بإرادة فولاذية ولم أتنازل قط عن هدفى حتى رضخا، وعلمت من أبى أن ابنة الباشا التى أصطحبتهى معها إلى الجامعة سوف ترافقنى فى رحلتى، رغم أنها لم تُعَيّن فى الجامعة، وأنّ الباشا سيدفع تكاليف سفرها ودراستها، كما سبق ودفع تكاليف سفر أخيها لفرنسا لدراسة القانون.

عرفت فهمي عبد الرحمن بحكم عمل والدى، وترددى على منزل الباشا فى أول الأمر معرفة سطحية، أثناء وجوده فى القرية، قبل سفره إلى الخارج لإكمال تعليمه الجامعى، سمعت عن سهراته فى عاصمة الإقليم، كما نما إلى سمع أبى جانب من أخبار علاقاته النسائية التى أزعجت والده، وعلمت من فوزية شيئاً عن خلافاته المزمّنة معها قبل أن يترك القطر إلى فرنسا، كما أخبرتنى أنه - رغم عدم تغيير سلوكه فى مدينة النور - لم يتعثّر فى دراسته، وحصل على إجازة فى القانون، وان والده وافق على أن يبقى هناك لبعض الوقت لعمل بعض الدراسات العليا، وكانت أول فرصة حقيقية لى لأن أعرفه عن قرب وأتحدث معه باستفاضة هى تلك التى سنحت لى عندما رافقنا - أخته وأنا - فى أول رحلاتنا إلى لندن، والواقع أنه أطمئن على كل ما يتعلق بسكنا ومعيشتنا قبل أن يغادرنا عائداً إلى باريس، واتسمت تصرفاته برجولة وشهامة لايمكن انكارهما خاصة وإنهما صدرتا منه هو بعد كل ما سمعته عنه، وخالجنى شعور غريب ناحيته لم أعرف كنهه أبداً، وظللت حريصة على ألا تتعدى علاقتنا إطارها الذى رسمته فى حزم وإصرار، وإن خيل إلى أحياناً أنه يرغب فى أن يوثق معرفته بى بشكل ما.

** ** * *

بالنسبة إلى خطبتي التي أجبرني عليها والديّ إلى أحد أقارب أبي،
فالحقيقة أنني اعتبرتها مجرد إرضاء لهما لافتر منه حتى لا يعارضون
في سفرى، ولكننى في قرارة نفسى لم آخذها قط مأخذ الجد، ولا
نويت أن أسمح لأى إنسان مهما كانت صلته بى ومكانته في نفسى أن
يملى على ما لا أَرْضاه أو أقتنع به، أما صديقتى فوزية فقد لاحظت
لهفتها وحرصها على مراسلة خطيبها، وكانت - على عكسي -
متشوقة إلى العودة للقطر في أسرع وقت، ولست أدري على التحقيق ما
أدى إلى فسخ هذه الخطبة في النهاية، لكننى حدست أن خطيبها هو
الذى تملص من الارتباط بصورة بدت وكأنها نتيجة لتصلب فوزية،
وإصرارها على استكمال دراستها بالخارج مفضلة لشهادتها على
ارتباطها به، كان الرجل مهذباً وعاقلاً حتى فى نظر والد فوزية
وأخيها، لكن تصرفه ترك فى نفس صديقتى جرحاً لم يندمل، ظلت
تعانى من آثاره طوال حياتها وإن حرصت على إخفائه، وعدم الاعتراف
بما سببه لها من صدمة وألم، ولعلها حملت أسرتها بعض المسئولية عما
حدث، لم يخطر ببالي وأنا أواسيها في غربتها أنني سوف أواجه نفس
الموقف بعد فترة قصيرة، وسوف أذوق نفس الكأس الذى واسيتها
حين وجدته بين يديها.

كانت فوزية في غربتها ووحدتها قد بدت ضعيفة مستسلمة لفترة
قصيرة، وقد أخذت الحسرة بمجامع نفسها، وشغلتها عن كل ما
حولها ومن حولها، لكنها سرعان ما تماكنت نفسها بسرعة فائقة،
وعادت للاستغراق في العمل والانكباب على دروسها التى وجدت فيها
سلواها وعزاءها، ساعدتها طبيعتها القوية على أن تسدل قناعاً من
الجمود والتعالى على وجهها، ولم تتخل عن هذا القناع بعد ذلك إلا في
حالات نادرة تُعد على أصابع اليد الواحدة، شهدت بعضها بعد ذلك
بسنوات طويلة عندما إصطدمت بأخيها وهى في مرضها وضعفها،
وفيما عدا هذا فإنها كانت تبدو شديدة الصلابة والقوة، وهى

الصورة التي عرفها بها زملاؤها في العمل، والتي ما يزال الناس في قريتنا يذكرونها بها حتى اليوم.

لم تعترف فوزية بما ظلت تعانيه في صمت إلا لأحد زملاء أخيها الأكبر سناً، وكان من أبناء القطر الذين سبقوا فهمي إلى الدراسة في السوربون، كان هذا الزميل عاقلاً رصيناً فاعتبرناه كأخ أكبر لنا جميعاً، وشجع هذا صديقتي على البوح بما أحسسته آنذاك له، وتمنيت أن يكون هذا الشخص من نصيب صديقتي، إذ لم يسبق لي أن رأيتها تنسى جمودها وتخلع قناعها إلا معه، لكنه ما لبث أن تخلى عن عمله في فرنسا، وعاد ليعمل قاضياً في وطنه، وعلمنا عند عودتنا أنه تزوج وأنجب ولداً واحداً، ولعل مثل هذا الخاطر دار بخلدنا آنذاك وإن كتمته عني، ووادته مع ما وأدت من مشاعر مرهفة أحسست أنها ستعتبر ضعفاً وهواناً أمامي وأمام زميلاتي، خاصةً وأنها كانت تظن أن هذا الشخص بالذات يميل إليّ، وقد اعتقدت يومها أن فوزية صارت تظن أن كل من حولنا أضحى معجباً بي أسيراً لجمالي، ربما بتأثير صدمتها في خطيبها، ورغم أنني من جانبي نفيت هذا الأمر تماماً، لكنها ظلت تعتقد أنه كاد أن يبوح لي بمشاعره لولا ما حدث بعد ذلك بيني وبين شقيقها.

نعم كانت هذه هي طبيعتها هي التي ساعدتها على تخطي تلك الفترة وتجاوزها أكثر من أي مواساة أو مُساندة، ولاحظت فوزية تضائل الفوارق في الغربية بيني وبين أخيها، وربما كان هذا هو سر إحساسى بتباعدنا عني فجأة، رغم حرصى على علاقتي بها واعترافى بفضلها، كان فهمي الذي تخرج من السوربون وبدأ في الإعداد للماجستير يزورنا كثيراً، وقد علمت من بعض معارف فوزية إنه إمتدحني وأطرى أخلاقى في أكثر من مناسبة، كنت مازلت متحفظة تماماً في تعاملى معه فأدرك أن الطريق الوحيد إلى قلبى هو الطريق السوى، تخليت عن حذرى وتناسيت ما قد ينشأ عن ارتباطنا

من آثار، وما سيفعله الباشا عندما يعلم بما حدث، فأعلنًا خطبتنا وسط دهشة فوزية وزملائنا الذين لم يفهموا سبباً للعجلة، وقضينا ردحاً جميلاً من الزمن بين لندن وباريس، ورغم أن علاقتنا كانت بريئةً تماماً، إلا أنني مازلت أحسب تلك الأيام كأجمل ما صادفتني في حياتي حتى الآن، فقد غمرني فهمي برعايته وهداياه، ولم أدر ما يخبئه لي القدر آنذاك، ولم يخطر بالي قط أن ما أظهره فهمي نحوى يمكن أن يعبر عن شئٍ خلاف العاطفة الصادقة الممتزجة بالإعزاز، ولا أن نهاية هذا الارتباط الهش ستكون أليمةً جارحةً.

* * * * *

لم يدم الزمن الجميل طويلاً، فعلمت أن الباشا طرد والدي من عمله مما اضطره إلى الانتقال إلى عاصمة الإقليم بحثاً عن عمل يعول منه أسرته، كما انتهت البعثة بعد ذلك بشهور، وعدت لأواجه أسرتي الساخطة، وأسرة الباشا الراضية لهذه الزيجة، عادت فوزية بعدي بفترة قصيرة وتسلمت عملها في مكان مرموق بمرتب يبلغ أضعاف مرتبي من الجامعة، وانتظرت عودة فهمي على أحر من الجمر، مرت شهور وفوزية لا تتصل بي إلا نادراً، وكلما قابلتها تتعلل بانشغالها، أو تتهرب كلما حاولت زيارتها أو مقابلتها، إلى أن حضرت ذات يوم دون موعد سابق إلى مكتبي في كلية الآداب، علمت من طريققتها أنها تحمل أخباراً عن أخيها، ذهبت معها إلى مقصف الكلية وانتحينا ركنًا هادئًا، أخبرتني أن أخاها قد اضطر إلى أن يرتبط بخطبة ابنة أحد كبار رجال الحزب الحاكم، وهو صديق حميم لعبد الرحمن باشا، وأنه أرسلها لتعتذر وتشرح ظروف هذه الزيجة التي لم يكن لديه مفر من قبولها نظراً لتدهور صحة الأب الذي يصر على إتمامها في أقرب وقت، وأنها واثقة أنني أحب أخيها حباً صادقاً، وسأقدر أن مصلحته تقتضى أن يتم فسخ الخطبة في هدوء ودون علم أحد منعاً للحرج والتقولات، وعرضت عليّ أن أحتفظ بكل هدايا فهمي مع أي

تعويض مادي عادل أراه مرضياً، ولكنني رفضت أن أقبل ما يمكن أن يُعتبر ترضية أو تسوية مالية، وأكدت لها أنني سأرد كل هداياها دون تردد.

لعلني أدركت في لحظتها شعور صديقتي الحقيقي نحوي، وكيف تجاهلت وقوفى إلى جانبها في ساعات الشدة، ورأيت كذلك وجهها الحقيقي لأول مرة، وهي تبرز أنيابها وتتفنن إلى إظهار تسلطها وقوتها، ثم علمت فيما بعد أن فوزية كانت حريصة على إتمام زواج أخيها لأن شقيق العروس تقدم لطلب يدها في نفس الوقت، ومرّت على أيام لا أستطيع وصفها، حتى شعرت أنني أصبحت غير قادرة على مواصلة حياتي فعلاً، ولولا تلك الإعارة التي عرضها عليّ أحد أساتذتي - تقديراً لحالتي - لإحدى الأقطار الشقيقة لما استطعت تجاوز هذه المحنة، وعلمت قبيل سفري أن فهمي حضر للكلية بعد مقابلتي لأخته ليراني، لكنني لم أحاول أن أتصل أو ألتقي به، وسافرت بعد أن اتصلت بفوزية وطلبت منها أن ترجوه ألا يحاول الاتصال بي بأي شكل من الأشكال.

قضيت عامين في الغربية لم أحاول الرجوع خلالهما ولو لقضاء أجازة واحدة في بلدي، وكنت أحس بالمرارة كلما تذكرت شيئاً مما ذقته فيها من إحباط وفشل، إذ أصبحت كل الأشياء تذكرني بخيانة فهمي وتخليه عني، وموقف أخته مني بلا عذر أو مبرر، وأنا التي واسيتها ولم أتخل عنها في موقف مشابه.

* * * * *

علمت عند انتهاء فترة الإعارة بإنشاء كلية مماثلة في عاصمة الإقليم، فطلبت نقلى هناك، وكانت فرضتي لأجد العزاء مع أسرتي، ولأبدأ حياتي محاولة أن أتناسى جراح الماضي، تزوجت من أحد رجال الأعمال وأنجبت منه ولدين، وسارت حياتي سيراً هادئاً، غير أنني لم

أذكر لزوجي شيئاً عن خطبتي لفهمي حرصاً على أن أنسى ذكريات الماضي، وتجنباً لإثارة المتاعب مع الباشا وأسرته، ولم أشعر بالشماتة عندما علمت أن شقيق زوجة فهمي فسخ خطبته لفوزية، وتجنبت الحديث عن رفيقة الصبا وأخيها مع أسرتي ومعاريفي حتى لا أنكأ جراحى بيدي.

مر زوجى بظروف سيئة فى عمله أثرت على طباعه، وخلفت فجوة بيننا وصلت إلى الطلاق، وعرفت أن فوزية بعدها تبحث عنى وتسعى لمقابلتى، فاتصلت بها ودعوتهأ إلى شقتى الصغيرة التى عشت فيها مع ولديّ، قابلتني بالاحضان والبكاء، فلم أتمالك نفسى وشعرت بكل ما فى أعماقى من شكوك ومرارة من ناحيتها يذوب فجأة، جلسنا نشكو حظنا فى الحياة ونضحك لتصاريف القدر، كنت قد فسخت خطبتي مرة وطلقت مرة، أما فوزية فقد فسخت خطبتها مرتين وتركت عملها مرتين، واستقر بها المقام أخيراً فى إحدى المدارس الثانوية فى مدينة قريبة، ذكرت لها أن أحد أقرباء أبى يعمل فى نفس المدرسة، وكلمته لأوصيه عليها ليرعاها، كما وعدتني بأن تطلب من محامى الأسرة أن يتابع مشاكلى مع زوجى السابق حتى أحصل على حقوق الولدين وحقوقى كاملة، وتكررت زيارتنا خاصة بعد وفاة طليقي، وبعد أن تزوجت فوزية من قريبي الذى يعمل معها بعد أن عرفتني عليه، وبدأت مرحلة من علاقتنا لعل الجميع يعرفون تفاصيلها.

لست أصدق عندما أراجع ما حدث فى مخيلتى أن فهمي عبد الرحمن خطيبى السابق ظل طوال هذه السنين لا يحاول مقابلتى أو رؤيتى، ليس فقط بسبب ما لمستته من حبه وتعلقه وإخلاصة طيلة فترة ارتباطنا، بل لأننى لم أتوقع أن يقابل موقفى منه ومن أسرته بهذا التجاهل والنكران حين قبلت الانسحاب فى صمت، ولم أتسبب فى أية مشكلة تمسه أو تشين عائلته، وكان هذا سهلاً وميسوراً، وطالما تساءلت عما حدث له، وهل ظن أن من حقه أن يفنى الجميع فى ذاته،

دونما انتظار لشكر أو عرفان، لم يقنعنى ما ذكرته فوزية عن إنقلاب شخصية أخيها وتحوله إلى إنسان متحجر قاسى القلب، لا يعبأ بمشاعر أقرب الناس إليه إذا ما تعارضت مع رغباته ومصالحه، إذ أن على من يهتم بمصالحة إهتماً حقيقياً ألا ينسى حقوق الآخرين، خاصة إذا كان تناسى هذه الحقوق قد يضر به دون أن يفوز بشيء فى المقابل، هل كانت معرفة فهمي بى، وإدراكه لعمق مشاعرى تجاهه فى الماضى قد جعلاه واثقاً من أننى لن أقدم على ما يسىء إليه مهما كانت الظروف..!؟.. لكننى لم أشمت به قط حتى بعهد كل ما حدث لاحقاً..!.. ولا أظن أننى سأستبق الأحداث دون داع، على أية حال فوجئت بفوزية تخبرنى أن أباها دفع أتعاب المحامى عن الإجراءات التى إتخذها لضمان حقى، وحقوق ولدىّ فى ثروة أبيهم، وأنه دفع من نصيبنا خلو شقة واسعة فى مكان راق فى عاصمة الإقليم قريباً من محل عملى، وذلك لأقيم بها أنا والولدان؛ وعندما رفضت قبول شيء منه قاطعتنى مذكرة إياى أننى لم أحصل من زوجى على مؤخر صداق أو نفقة كافية، وأننى أشكك من ناحية أخرى فى ذكاء أخيها، إذا تناسيت، أنه- كرجل قانون- يعرف اننى كنت قادرة على الحاق الأذى بأسرته، ومستقبله السياسى لو أنسقت وراء مشاعرى المجروحة عندما هجرنى بلا ذنب أو جريرة، وأننى لا بد أننى أعرف أنه مدرك تماماً لما كان يمكننى أن أفعله لو سعيت للإنتقام منه بسبب تخليه عنى بتلك الصورة الجارحة، ورجتتى أن أنسى موقفها فى تلك الأيام، وأقسمت أن هناك من الأمور التى لا أعرفها ما يبرر تصرفها وتباعدها آنذاك.

رغم أن فوزية بدت لى وكأنها فتحت صفحة جديدة فى علاقتنا، لا تثق فيها إلا بى، ولا تكتم علىّ من أسرارها أمراً من الأمور، ورغم أننى ظللت كتاباً مفتوحاً بالنسبة لها لا أخفى عنها أدق خصوصياتى، فقد ظلت تحتفظ بما تريد من أمورها لنفسها، وتخبرنى بما تراه لا

يخل بطبعها فى التحفظ و الكتمان، وظلت علاقتى بها خارج نطاق إرادتى فلم أشعر يوماً أننى أستطيع رسم حدودها أو التحكم فى مداها.

إعتبرت فوزية أن من حقها أن تتدخل فى حياتى، تفرض على مساعدتها وتضع حدود العلاقة بيننا، فتشركنى فيما تريد، وتستأثر لنفسها بما ترغب فيه، وإعتبرت منزلى الجديد مسكناً لها، خاصة بعد أن سافر ولداى وأصبحت هى وحيدة بعد وفاة زوجها الأول، وبحكم عملها فى عاصمة الإقليم، كثر ترددها على شقتى، وأصبح من عاداتها قضاء فترة ما بعد الظهر بها سواء أكنت موجودة أو غائبة لبعض شأنى، وفى المقابل فإننى لم أعود الذهاب إلى منزلها فى القرية بعد أن إنتقلت للعيش فيه إلا بعد إستئذائها، أو بناءً على دعوة منها، خاصة بعد أن تزوجت للمرة الثانية من شريف بك.

الواقع أننى احسست أن فوزية رغم تسلطها وميلها للسيطرة على من حولها، ظلت فى قرارة نفسها تشعر بنوع من الهزيمة والإحباط، خاصة بعد أن فسخت خطوبتها وهى وحيدة غريبة بصورة لم تفارق خيالها، وتكررت المأساة بشكل أدمى فؤادها حين تركها شقيق زوجته أخيها حتى دون سبب ظاهر هذه المرة، ولعل رغبتها فى أن تشعر أنها مرغوبة جعلها تتعجل زيجتها الأولى التى لم تكن سعيدة أثناءها ولا مقتنعة بها، مما أشقاها وأشقى زوجها، وضاعف عدم الإنجاب من شعورها بعدم الرضا، وقد سمعت ما قيل من أن حادث السيارة وقع بعد مشادة بين الزوجين، خرج زوجها من المنزل على إثرها، فقاد سيارته وهو منفعل مما تسبب فى وقوع الحادث على هذه الصورة، وكانت فوزية قد دابت فى أيام زوجها الأخيرة على أن تعيره بعجزه المادى بسبب تمسكه بمبادئ هدامة وإغراقه فى الخيال، ولم تبال بوقع هذه الكلمات على رجل إعتاد ان يلقى الحفاوة والتقدير من زملائه.

أما شريف بك فقد قيل أنه - رغم ميله لمساعدتها فى مشروعاتها الخيرية، وتوسيع هذه المشروعات بأمواله وعلاقاته - طالما شكاً من برودها وحدتها وولعها بالتقليل من شأنه، لكنَّ الرجل كان يملك الخلاص عندما يريده، فراح يمضى الأيام فى عزبته القريبة من القرية مع أولاده من زوجته الأولى تاركاً فوزية وحدها معظم الوقت، ولذلك فإنه لم يسمح للعلاقات بينهما أن تصل إلى درجة تضطره إلى الوقوف فى وجهها، مما يفضح ما بينهما من خلاف، وظل كل شىء خافياً حتى النهاية.

بعد وفاة شريف بك بعدة شهور، ظهر احد أقربائى من ناحية الأم، كان يعرف فوزية عن طريق البنك الذى تعودت أن تودع فيه حساباتها الخاصة بالجمعيات الخيرية، ولم تكن علاقتى بأقارب والدتى طيبة على وجه العموم، لذلك فإننى لم أشجعه على التذرع بقربته لي ليوطد صلته بفوزية، أو ليحصل على عمل إضافى فى الجمعيات التى ترعاها، ولاحظت أن صديقتى على غير عادتها كانت تتبسط معه، وتفرج أساريرها كلما تحدث إليها، مهما كان موضوع الحديث، وسمحت له بالحضور أحيانا إلى القرية فى الأوقات التى أكون موجودة فيها هناك متذرعة بإنهاء بعض الحسابات العاجلة، أو إيداع بعض التبرعات من أهل الخير.

فى الفترة التى سبقت وفاتها، لاحظت انها تباعدت وقلت زياراتها مكثفية بالاتصال تليفونيا، فلم تزرنى إلا مرة أو مرتين عندما كنت غائبة خارج المدينة لحضور مؤتمر ما أو مناقشة لرسالة فى مدينة أخرى، وفى أحد الأيام شعرت ببعض التوعك فإعتذرت عن إكمال مهمتى، ورجعت إلى المنزل فى سيارة إحدى زميلاتى، صعدت إلى شقتى وفى نيتى تناول كوب من الليمون وقرص من الأسبرين، وإذا بى أشم رائحة دخان نفاذ ذكرنى بسجائر قرييى، ووجدت أن الرائحة تبلغ أقصاها فى غرفة النوم كما لاحظت أن أغطية السرير قد تم

تغييرها، حسبت أننى سأجد فوزية فى الشقة ولكننى لم أعثر لها على أثر، وكنت متعبة فتمددت حتى غلبنى النوم متوقعة أن تعود صديقتى بين لحظة وأخرى كعادتها، ولكن هذا لم يحدث، إستيقظت فى حال طيبة فحاولت ترتيب غرفة النوم، وإذا بى أفاجأ ببعض أعقاب السجائر فى كوب تحت السرير، ولدهشتى وجدت ولاعة وسلسلة مفاتيح، وقفز إلى ذهنى خاطرٌ مذهل لم أشأ أن أصدقه وهو أن هذه الأشياء تخص قريبى، لم يكن سهلا أن أتصور علاقة من أى نوع بين شاب فى مطلع الأربعينيات وأمرأة أشرقت على الخمسين أو تخطتها لها صفات صديقتى التى أعرفها، إذ كيف يمكن أن تستسلم فوزية لشاب بهذه النوعية المنفرة، وكيف لم تتنبه لما قد يدفع مثل هذا الرجل نحوها؟!!

تركت البحث وتوضيب الغرفة وجلست متأملة فى حياتى وحياة صديقتى.

خيل لى قبلها أنها تعامله بتحفظ ولباقة برغم أنه يتصرف برعونة وطيش ينمان عن طمع ودناءه وأصل متواضع، وأنها تصده كلما حاول التقرب منها بلطف وحنكة، وأن صبرها على طباعه إنما يظهر مدى ثقته بنفسها وعمق تجاربها فى الحياة، مما يجعلها من مأمّن من الوقوع فى براثن مثل هذا الوحش الناعم الذى لا تخفى أغراضه عليها مهما كانت قدرته على التكلف والتصنع.

عندما حضرت فوزية لزيارتى فى اليوم التالى أخبرتها - كاذبة - أننى وصلت لتوى، وتأكدت شكوكى عندما لم تخبرنى بحضورها للمبزل فى اليوم السابق، ووجدتها تدخل غرفة النوم حيث تعمدت ترك كل شىء على حاله وكأننى لم أنتبه لوجوده بالغرفة، وفوجئت بعد انصرافها المتعجل باختفاء الولاة والمفاتيح وأعقاب السجائر، فجلست لا أدرى ماذا أفعل وقد تأكدت ظنونى وتملكنى حزن عميق، إذ ظلت

لفوزية وهى صديقة العمر مكانتها وإحترامها فى نفسى رغم كل شىء.

** ** * * * *

بعد هذه المقابلة بأيام كنت أستعد لحضور ندوة علمية فى الجامعة، وقبل خروجى من المنزل فوجئت بإبن فهمي الأكبر يندق جرس بابى، نظرت وراءه متوقعة أن تكون خطيبته معه لكننى لدهشتى وجدته يستأذن لوالده فى الدخول، ولم أملك إلا أن أرحب بهما، وطلبت من البواب ان يحضر لهما شرابا مثلجا، كانت تلك أول مرة أقابله فيها وجهاً لوجه بعد ما يقرب من ربع قرن..!.

رغم الهدوء الظاهرى فإنى لمست مدى توتر خطيبى السابق وإنفعاله، وأحسست أنه يعلم أننى وحدى، وتوجست من هذه الزيارة المفاجئة التى لم أتوقعها قط، تحدث فهمي أولاً عن معرفته بصداقتى لأخته وعلاقتى الوثيقة بها فى الأعوام الأخيرة، وسألنى عما أعرفه عن مدى ارتباطها بذلك الشاب الذى علم بقربته لى، شرحت له فى إيجاز أن فوزية قد إنقطعت عن زيارتى منذ فترة، وركزت على أن قرابتي لهذا الشاب لم يكن لها دخل فى معرفته بإخته التى تعاملت معه من خلال وظيفته فى البنك قبل أن أراه لأول مرة، وأن صلتى مقطوعة منذ زمن طويل بأخوالى كما أظنه يعرف، وأبدى فهمي شكره وإعتذر عن ذلك الإزعاج غير المتوقع، وإنسحب فى أدب مع إبنه الذى لمست من نظراته مدى ضيق صدره بالمقابلة، وعدم رضاه عن تल्पف أبيه وحرصه على معاملتى كصديقة مقربة من الأسرة، والحقيقة أننى لم أعرف سبباً لشعوره تجاهى، إذ لم أجد له مبرراً منذ معرفتى به وبخطيبته عن طريق عمته فوزية، خاصة وأننى كنت متعاطفة معهما مؤيدة لموقف فوزية من ارتباطهما، وتساءلت عما قد يكون عليه شعوره لو علم بالعلاقة القديمة بينى وبين والده، لكننى كنت أحس ان فهمي اخفاها عن كل من حوله وان الشاب لا يدري عنها شيئاً.

أما المقابلة التي لا أنساها فقد كانت عقب حضور المرحومة إلى شقتي بعد أن أحست بتدهور صحتها، وكما رأيتها في أوجّ ضعفها ونحن في لندن، عدت أشهد أنهيارها الذي كان بتأثير حالتها النفسية بقدر ما كان إنعكاسا لتفاقم ارتفاع ضغط الدم ومرض السكري، بدأت كعادتها بأن عاتبنتي على إنقطاعي عن زيارتها في القرية، وراحت تحكى لي ما قاله الطبيب، كان واضحا أنها أحضرت حقيبة ضخمة تدل على نيتها أن تقيم لفترة ليست بالقصيرة، ويقدر دهشتي من حضورها بعد طول إنقطاع، وسعادتي الحذرة بوجودها معي مما كان - برغم كل شيء - يسليني في وحدتي بعد سفر الولدين، فإني حمدت الله بعد ذلك لأنه لم يكتب لها أن تنتهي حياتها في منزلي، ولعل هذا قد جنبني كثيراً من الشكوك والمشاكل التي أنا في غنى عنها، خاصة إذا ما أثّرت حكايات الماضي ونُكّئت جراحه.

فوجئنا بجرس الباب يدق، وعندما فتحت الباب، وجدت فهمي وحده هذه المرة، كان حزيناً متجهماً، وسألني عن أخته، وما أن علم بوجودها حتى دخل مندفعاً بصورة جعلتني أستمله حتى أخبرها بقدمه، لكنها لم تنتظرنى وكأنها توقعته، وإذا بها تتفجر في وجهه تتهمه بالقسوة والأنانية والطمع في ثروتها، وأشارت إلى محاولاته إجبارها على بيع أرضها، وكراهيته لكل ما قدمته للناس من خدمات، ومسئوليته عن مرضها وتدهور حالتها النفسية.

من الغريب أنه جلس هادئاً يستمع إليها، وفي الوقت الذي رفضت فوزية فيه محاولاتى لتهدئة الموقف، أصرّ فهمي علي بقائى عندما حاولت الانسحاب، وقال أنه يريدني أن أكون شاهدةً أسمع كل ما يقال، وسألها بحدة عن سبب تركها للقرية رغم أنه أخبرها انه سيحضر لأخذها للعاصمة الكبرى حيث يمكن توفير الرعاية الطبية بصورة أفضل؟.. فلم تحر جوابا وأنهارت على أقرب مقعد وملامحها

تنبىء عن يأس وإعياء شديدين، وإنبعثت تبكى بعد أفرغت سيل اللوم والالتهام لأخيها.

خشيت أن تتطور الأمور فأجد صديقتى وقد قضى عليها، توسلت إليهما أن يهدئا من روعهما فسادت فترة من السكون، بدأ فهمي بعدها فى حديث هادىء، أذكر أنه بدأه بأن قال أن هناك الكثير الذى لا أعرفه ولا يعرفه الناس عن أخته، وأنه يظن أنه قد آن الآوان لأن يبوح بما قد ضاق صدره بكتمانها، ذكرها بإنها كانت وراء إصرار أبيها على فصم العلاقة بينى وبينه، ولم تتركه حتى أقسم أمامها ألا يحاول رؤيتى تاركا لها أن تسوى الأمر معى، واعترف بأنه حث فى يمينه وحاول مقابلتى بعد ذلك دون جدوى، وركز على خطبتها لشقيق زوجته الذى لمس طباعها الحادة وتسلسها، مما جعله يتركها، فأورثها العداة والكراهية لزوجته وله، وعرض لزوجها الأول والثانى مؤكداً علمه بما عاناه كل من الزوجين، ثم فأجأنى بحديثه عن زواجها السرى بذلك الشاب الذى وصفه بالتفاهة والخسة، قال أنه علم بنيتها وحدرها فلم ترتدع، وعندما واجهها بعد إتمام الزواج أنكرت، لولا أنه أظهر لها صورة عقد الزواج التى إستخرجها محاميه، فما كان منها إلا أن عاندت وهددت بإعلان هذا الزواج على الملأ إذا لم يتوقف عن ملاحقتها.

بدت فوزية على وشك الإنهيار، وظهرت على وجهها علامات الإنكسار التى لم أرها منذ زمن طويل، فرجوت أخاها أن يكف عن إيلامها، وأن يتركها حتى تستريح، وبعد إنصرافه إطمأنتت أنها تناولت دواءها وأخلدت إلى النوم.

أحسست فى نفسى شيئاً من الإمتعاض والرفض لأسلوب كلا الأخوين فى تصفيه حساباتهم دون مراعاة لمشاعر الآخرين، كما أننى لمست - لأول مرة - مدى التشابه بين طباع فهمي و شقيقته، فكلاهما غارق فى ذاته، غير مكترث بمن حوله، واجتاحتنى المرارة

حين تأملت طريقتهما فى معالجة أمرى، وأعتبره مجرد وسيلة لإجتذابى لهذا أو لتلك، ويقينهما أن من ضيع علىّ فرصة الارتباط بفهمى فى الماضى سيخسر تعاطفى تلقائياً.

تجنبت فوزية بعد هذه المقابلة العاصفة الخوض فى المواضيع التى طرقها أخوها، وبدأت محرجةً حريصةً على أن تعود إلى القرية بأسرع ما يمكن، ولم أضغط عليها خاصةً وأنتى كنت على وشك أن أسافر إلى العاصمة الكبرى لمقابلة ابنى الأكبر الذى عاد فى إجازة من عمله.

* * * * *

حضر فهمى لزيارة أخته عندما علم أن صحتها قد ساءت بعض الشيء،.. قابل الطبيب المعالج، وأستأذنى فى أن يحضر ممرضة وخادمة لرعاية فوزية فلم أمانع، وفى إحدى زيارته كانت الممرضة قد أتت عملها وتهيأت لتترك الشقة فطلب من الخادم عمل فنجان من القهوة، وجلس فى الشرفة منتظراً، فجلست معه من باب المجاملة، وإذا به يفتح موضوعنا القديم، رجوته أن يتناسى الماضى، لكنه أصرّ قائلاً أن هناك أشياء لا بد أن يفضى إلى بها حتى يستريح ضميره، وأكد أنه يعلم أن الوقت قد تأخر لكن إيضاح هذه الأمور ضرورى لفهم الكثير مما غمض على فى الماضى ولم تسنح له الفرصة لايضاحه...

قال أن فوزية قابلته عند عودته من فرنسا، وأخبرته أننى قد سئمت الانتظار، وأن البقاء على هذا الحال انتظاراً لرضا والدهما الباشا عن زواجه منى قد أصبح لا يناسبنى، وبعدها بأيام نقلت أخته إليه رسالة شفوية منى أطلب فيها أن نعتبر ما بيننا منتهياً، حتى يصبح كلاً منا حراً فى أن يواصل حياته كما يتناسب مع ظروفه، بعدها ألمح الباشا إلى علاقة قديمة له بوالدتى طالبا منه أن يعتبر ما ذكره سراً لا يخبر به أحداً حرصاً على سمعته وسمعتى،.. كدت أنهار أنا

الأخرى لكننى تماسكت حتى أنهى فهمي حديثه، فأفهمته أن هذا الأمر كله مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة، وقبل أن أكمل، أكد لى أنه عرف الحقيقة وتأكد منها، ولولا هذا لما فكر فى إتمام الزواج منى، وأقسم أنه حاول مقابلتى عدة مرات لكننى كنت أتهرب منه، وأنه حمل أخته رسالة لى بهذا المعنى لكنها فيما يبدو لم توصلها، رجوته فى نوع من الحده ألا يذكر الماضى الذى أضحي نسيانه خيرا للجميع،.. فأبدئ أسفه لأنه نكأ جراحاً قديمة، لكنه دعانى أن أتفهم ظروفه وما أملى عليه هذا الموقف فى الماضى، وسكت برهة ثم عاد يقول أنه علم أنها كانت تقابل ذلك الشاب الذى تزوجته خلسه فى شقتى كلما علمت بغيابى، وتساءل كيف لم تقدر ما سيظنه الناس بى إذا ما رأوا مثل هذا الفتى يتسلل إلى الشقة ثم ينسل منها ليلاً؟!.. وأضاف أنه سوئ الأمر مع زوجها فى سرية تامة، واتفق معه عن طريق محاميه على أن يطلقها مقابل مبلغ محترم من المال، لكنه فوجئ بها تصب جام غضبها عليه، حتى أنها رفضت أن تذهب معه لإستكمال علاجها فى أفضل المستشفيات فى العاصمة الكبرى، وأنه دهش من هذا الموقف لأن أخته كان يجب أن تدرك نية هذا الشاب، وأن تفهم أنه قدّم فى النهاية دليلاً لا يقبل الشك على أنه لم يسع وراءها إلا طمعاً فى مالها، لكنها بدلا من ذلك أقنعت نفسها أنه قبل هذه الصفقة خوفاً من نفوذه وتجنباً للدخول فى صدام معه!!.

واستطرد - منفِعلاً - يشرح وجهة نظرة فى تصرفات أخته، بينما تساءلت هل يعقل أن يكون ما ذكره عن سعى أخته لفصم علاقتى به صحيحاً، أم أنه انتهز فرصة غيابها ليعيد صياغة الحوادث بهذه الصورة الأليمة، ورجوت الله أن تنتهى هذه الفترة على خير، غير أن دعائى - كما أظن - لم يستجب فى تلك اللحظة.

شعرت أن ما أخبرنى به فهمي قد زلزل كيانى كله، برغم عدم رضائى عن فتح هذا الموضوع أصلاً، فذكرته بمرض أخته وطلبت منه

ألا يضغط عليها، وأن يمهلها حتى تستعيد عافيتها وتصبح قادرة على أن تعيد النظر في كل هذه الأمور فوعدني بذلك قبل أن ينصرف.

بعد ذلك مباشرة حضرت خطيبة أبنه الأكبر لزيارة فوزية، وكانت منزعجة للغاية، حكمت لي أن خطيبها لم يتصل بها منذ سفره سوى مرة واحدة، ولم يرسل أية خطابات على الإطلاق، واسيتها وأنا موقنة أنها لو تأملت تجارب الآخرين، وأمعت فيها النظر لأدركت أنها قد تكون نجت من تجربة أليمه قبل فوات الأوان.

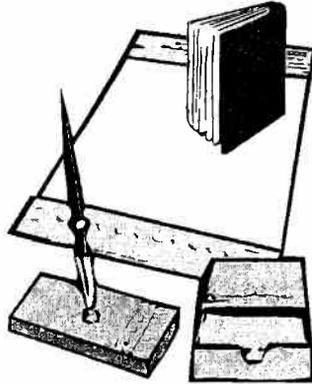
تذكرت أن علياً أن أسافر في اليوم التالي للعاصمة الكبرى، بدأت في إعداد حقيبتى وطلبت من الخادمة إعداد بعض حاجياتى، لكنها عادت بعد قليل لتخبرنى أن فوزية إستيقظت، وتريدنى أن أذهب إليها، كانت تبدو أحسن قليلا من الأيام الماضية وأن ظل وجهها محققنا بصورة واضحة، سألتنى عما فعلته في الجمعيات التي حضرت إجتماعاتها نيابة عنها، أخبرتها باتصال حارس منزلها وزوجته، وحضور أخيها أثناء نومها، طلبت منى ألا أتأخر قدر إمكانى في العاصمة الكبرى، وأمسكت بيدي طالبة منى أن أذكر دائما أنها تعتبرنى صديقة عمرها، وأستحلفتنى ألا أصدق كلمة مما قاله أخوها أو ما سيقوله، كدت أبكى وشعرت بضالة الدنيا وتفاهة ما نشغل به أنفسنا من أمورها، تمنيت ألا يكون فهمي صادقا فيما نسبه لأخته او لأمى، وأيقنت أننى لا أستطيع أن أصدقها فيما ذكره عنهما، سألتنى صديقتى عن زميلنا القديم القاضى حامد البشير الذى إستقر في عاصمة الإقليم بعد أن افتتح مكتباً للمحاماه، وإبتسمت إبتسامة ذات مغرى وهى تؤكد لى أنه يعيش وحيداً بعد أن ماتت زوجته، ولم يعد له من أسرة سوى ابنه الوحيد ضابط الشرطة، ونصحتنى أن أزوره فى مكتبه مؤكدة أنه سيسر لرؤيتى، إبتسمت بدورى وأنا أتذكر ما تعودت ان تقوله عن إعجابه بى أيام كنا فى الخارج، شعرت أننى فعلا لا أكرهها حتى لو كانت قد إرتكبت كل هذه الأخطاء التى أفاض

فهمني فى سردها ، وتناسيت كل ما قاله اخوها وكل ما حملته عليها
فى الماضى ، ودعوت لها مخلصه بالشفاء .

الغريب اننى قابلت الأستاذ حامد فعلاً أكثر من مرة فى فترة
إنقطاع فوزية عن زيارتى ، فقد فكرت فى توكيله لتحديد أنصبتى
أنا وإبنى فى قطعة أرض كانت مناصفة بينى وبين زوجى السابق
تمهيدا لبيعها ، حتى أحصل على ثمنها وأرسل لكل من ولدئى نصيبه ،
وكان الرجل غاية فى الذوق والأدب ، لكننى لم أجد المقام مناسباً
لأخبر فوزية عن هذه الأحداث وإن عجبت لأنها تذكرت زميلنا القديم
فجأة فى لحظة شفافية وصفاء .

غادرت المنزل فى الصباح المبكر متوجهة إلى الكلية ، ركبت
سيارة أجرة بعد انتهاء محاضرتى إلى محطة الحافلات حيث إستقلت
أحداها غير عالمة أننى قد ودعت صديقتى إلى الأبد ، وبأن نهايتها ومن
بعدها نهاية أخيها كاننا قد حاننا فجأة .

** ** * * * *



وكيل النيابة

عرفت رشدى حامد كزميل فى الدراسة الثانوية قبل أن أعرفه كضابط شرطة، كان تاريخ والده فى سلك القضاء من الصفحات الناصعة التى طالما فخر بها أساتذتى فى كلية الحقوق، وتحدث عنها السياسيون والقضاه على حد سواء، وكان حماس رشدى لعمله وتفانيه فيه فضلا عن نظافة يده أمرا جليا لكل من تعامل معه، لكنه دأب على خرق القواعد "البالية" والإجراءات "الروتينية" كما كان يطلق عليهما، ويشبههما بمن يمتطى سلحفاه بينما طريقة سالك واضح، والمواصلات متاحة، لا لشيء سوى أن من قبله دأبوا على ركوبها، مشكلة صديقى القديم أنه كان يعتبر نفسه ضابط شرطة "بصفة مؤقتة" إلى حين يفى والده بوعده وينقله إلى سلك القضاء، مما جعله يتصرف دائماً كمن يملك وسائل وادوات و معلومات ضابط الشرطة، وصلاحيات وكيل النيابة، ظل يُشعرتى أنه يصدر حكمه فى كثير مما يناط به توليه من قضايا وتحقيقات قبل أن تعرض على القضاء أصلاً.

لكننى لا أنكر أنه أذهلنى فى أحيان كثيرة بصدق حدسه ونظرته الثاقبة، وقدرته على تحليل شخصية من يتعرض لهم فى عمله تحليلاً يدهش الإنسان لدقته وشموله، ومع هذا فقد ظل رؤساؤه يشكون من حدته وتخطيه لصلاحياته، وعدم تقديره لظروف كل قضية مما سبب لهم إخراجاً فى مناسبات كثيرة.

أطلعنى رشدى على جوانب كثيرة من ظروف وفاة فوزية شقيقة فهمي عبد الرحمن السياسى المعروف، وتناقشنا كثيرا فيما عرضه على من وقائع... كان لا يحب عمدة القرية ولا شيخ الخضر، ويعتقد

أنهما يخفيان عنه ما يعرفانه عن ظروف السرقة، وربما الوفاة نفسها. كما لم يكن مرتاحاً لحارس المنزل وزوجته، لكنه استمع لنصيحتي ولم يقبض عليهما، واكتفى بأن أمر بمراقبتهما سراً، كما سجل الأقوال التي ظن أنها قد تدين فهمي بك - شقيق المتوفية - نفسه، وإن كان فيما يبدو لم يلزم الحذر كما رجوته، فكان الحادث الذي تعرض له، لم أصارح أحداً بشكوكي حول هذا الأمر إطلاقاً، فقد تعودت الا أصل إلى النتائج إلا بناء على أدلة ملموسة ثابتة من الناحية القانونية، إلا أن رشدى وكذلك والده كانا موقنين أن الحادث مدبر.

بعد زيارتي لرشدى فى المستشفى بيومين، حضر والده وسلمنى ملفا قال انه صورة التحقيق الذى أجراه ابنه، كما أعطانى عدة شرائط "كاسيت" سُجلت عليها بعض الشهادات الهامة، .. إحتفظت بالملف والشرائط فى شقتى كما أوصانى، وفى اليوم التالى إستدعانى رئيس النيابة الذى كان يشرب قهوته مع مأمور المركز، تطرق الحديث إلى التحقيق الذى دار حول وفاة السيدة فوزية، انتقدا أسلوب صديقى وأتھماه بالاندفاع والتهور، ألمح المأمور إلى أن فهمي بك رُشح لوزارة العدل فى التشكيل الوزارى القادم، قال لى رئيس النيابة أنه كلفنى بالقضية طالباً أن أركز على موضوع السرقة طالما أن الطبيب الشرعى أكد أن الوفاة طبيعية، والا أنساق وراء استنتاجات لا دليل عليها واتهامات لا طائل من ورائها إلا إستعداد كبار المسئولين.

لم أسعد بتكليفى بالقضية وإن كنت أتوقعه، ولم أصرح برأى فى كل ما قيل، إذ لم يكن المقام مناسباً لأى رأى مخالف، علق رئيس النيابة بعد إنصراف المأمور قائلاً أنه لا ينصحنى بأن أضع وزناً لأى إعتبار، إلا تحرى الصدق والحيدة، لكنه أنتقد خوض التحقيقات فى مسائل عائلية، وأسرار لا تقدم ولا تؤخر فى صلب الموضوع، وقال ضاحكاً:

" لعل السيد المعاون يظن نفسه " هيركيول بوارو " أو " شرلوك هولمز " فى إحدى الروايات التى يسلى بها نفسه.. وتساءل عن سر الفارق الشائع بين شخصيته وما سبق أن علمه عن والده بما يشرف أى قاض، وحملت ملف القضية عائداً إلى مكتبى، ولم أتمالك أن تساءلت فى نفسى: " هل كان رأى رؤساء القاضى حامد البشير والد رشدى فيه خيراً من رأى رئيس النيابة والمأمور فى ابنه؟... " أظن أن الإجابة هى بالسلب إذا روعيت طبيعة الأشياء فى بلدنا.

* * * * *

أحسست بعد أن طالعت الملف بالجهد الفائق الذى بذله رشدى فى التحقيق والتحرى، لمست الأسباب المقنعة التى بُنيت عليها شكوكه فى ظروف الوفاة نفسها، كما فهمت لماذا لم يكن واثقاً أن حارس المنزل كان صادقاً تماماً فى أقواله، فقد أحسست أنه لا بد أن يكون له يد فى السرقة، فلم تكن هناك علامات تدل على ان المنزل قد تم إقتحامه بالقوة، ولم يكن هناك من يملك مفتاحاً للمنزل ولخزنة النقود - بإستثناء أصحابها - سواه، كما أننى أستشعرت أن تدخل الشرطة لم يكن مرغوباً فيه، سواء من جهة العمدة أو فهمي بك نفسه، وإن لم يظهر ذلك بالطبع صراحةً.

أعدت إستجواب الجميع، وواجهت حارس المنزل بالشهود الذين أكدوا أنه كان ينفق الأموال بصورة لا تتناسب مع إمكانياته، وشعر الرجل بالحلقة تضيق حوله فأعترف أنه كان قد إختلس نسبة كعمولة من إيجار أرض فوزية هانم، لكنه أكد أن معظم الإيجار كان فى الخزنة التى وجدت فى صبيحة اليوم التالى مفتوحة وفارغة، وأنه شك - عندما إكتشف موت المرحومة - أن يكون هناك من قتلها وسرق نقودها ومصاغها، وكان هذا سبب إبلاغه عن الحادث.

أصبحت كمن دخل الغرفة المحرمة - فى الروايات الشعبية - مكرهاً، لكنه مالبث أن وجد نفسه أسيراً لأشخاصها مسحوراً بمحتوياتها، لم أنج من الإغراء الذى وقع فيه رشدى قبلى، شعرت بالحيرة أمام العمدة ببشاشته وتظاهره بالترحيب والرغبة فى المعاونة. وما أجده من رجاله وفلاحى القرية من التحفظ والإصرار على كلمات محسوبة لا يتعدونها، كما لمست سحر شخصية فهمي بك بتواضعه الجم، وبدا أخويه غير الشقيقين كمجرد ظل له، وأدركت قوة تأثيره ونفوذه على من حوله سواء فى القرية أو خارج نطاق الإقليم، إستدعيت مأمور الشهر العقارى و طبيب السيدة فوزية، كما فوجئت بخطيبة ابن فهمي بك تحضر لتدلى بأقوالها، وإستمعت إلى ألفت إمام التى بدت لى حصيفةً وعاقلةً، وأدركت أن حزنها على ما حدث لها وما لقيته فى حياتها يفوق حزنها على صديقتها التى كانت رفيقتها فى الوحدة، وسلواها بعد ما مر بها من ظروف سيئة!...

لم أدر هل فهمي بك هو ذلك المستهتر الماجن الذى أرسله أبوه إلى أوروبا حتى يرتاح مما سببه له من المتاعب، فعاد رجلاً قاسياً مادياً متحجر القلب يدوس على كل شئ ويطيح بكل إنسان يقف فى طريقة أو يعترض مصالحه؟، أم إنه هو ذلك الشاب الخيالى الحالم الذى وقع فى حب إنسانة فقيرة، ولم يقم وزناً للفارق الاجتماعى بينها وبينه، ثم تحول لشخص آخر بتأثر الضغوط والظروف عندما عاد من أوروبا، أم أنه رجع ليجد خطيبته وقد إرتبطت بحب جديد مع أستاذها فى الجامعة - كما أخبرنى أخوه - فإضطر أمام رغبتها أن يفسخ الخطبة فى سرية تامة، وأن يبحث عن العزاء فى زواج ترتبه الأسرة، ويتفق مع مستواها ومصالحها... لكنه لا يتخلى عن محبوبته عندما يوقن ان أستاذها قد تملص منها فى النهاية، فيسأل أخته - صديقتها - أن ترعاها دون ان يسعى لتجديد علاقته بها إحتراماً لزوجته وأسرته...!.

ولم أعرف كذلك هل كانت ألفت إمام تلك الفتاة التي دعاها ذكاؤها وتفوقها إلى أن تهرب من مصيرها الذي كان ينتظرها في القرية، والذي لم يكن إلا القبول بالفقر والعوز والعيش إلى الأبد مع من يذكرون في إستكثار سيرة جدتها لأمها وخالاتها - أسرة الخواجة - الذين لم يراعوا التقاليد ولا العادات واشتهروا بالسير المعوج وامتصاص دماء الفلاحين، ولم ينسوا زواج أمها من إمام أفندي وما ثار حوله من اشاعات، وهل وضعت عينها على فهمي عبدالرحمن في الغربة حتى نجحت في إيقاعه في حبالها، فكاد أن يتزوجها غير مدرك أنها أرادت أن ترد الصفة لعائلته، و لأهل القرية الذين طالما عايروها بسيرة والدتها؟... وهل دفعها نفس الطموح بعد ذلك إلى التطلع إلى الارتباط بأستاذ جامعي متزوج وله أسرة؟... فكادت أن تتجح في مسعاها لولا أن الرجل علم أنها أخفت عنه خطبتها لفهمي عبد الرحمن، وأدرك نوعيتها الإنتهازية، مما جعله يصارحها بأنه قرر قطع علاقته بها، فأضطرت إلى السفر للخارج لفترة تعود بعدها لتبدأ حياتها في مدينة أخرى مع رجل آخر، لكنها تظل بعيدة عن أسرتها، حريصة على عدم الإقتراب من إخواتها بأكثر مما تسمح مصلحتها...؟ أم أصدق كل ما روته هي نفسها عن ظروف معرفتها بفوزية ثم بأخيها فهمي في الغربة وماتلا ذلك من تنكرهما لها، ثم عودتها ل صداقتها مع فوزية وارتباطها بها ونسيان جراح الماضي وأن كل ما اشيع عنها انما هو مجرد أقاويل وشائعات كاذبة ومغرضه..؟.

وهل كان عمدة القرية ضالعا مع المطاريد في عمليات بيع السلاح التي علمنا عن بعضها بعد فوات الأوان؟.. وهل ظلت نقوده ونقود أهل قريته معهم يتاجرون بها في المخدرات وسائر الموبقات؟... أم أن هذه أيضا مبالغات من حاسديه من أهل قريته والعائلات التي تطمح إلى العمودية؟..

وفوق ذلك هل تظل ظروف وفاة فوزية عبد الرحمن غامضة وغير مفهومه؟.. وكيف أصدق أنها ذهبت لتتقل ملكية أرضها لأخيها الذى لم يكن على وفاق معها قط وهى فى آخر أيامها..؟.. وما الدافع وراء عودتها المباغثة للقرية دون سبب ظاهر؟..

ومن الذى أوصلها إلى منزلها هناك؟.. ومن سارق الحلى والنقود..؟

* * * * *

تماثلت صحة رشدى للشفاء، وقاربت إجازته على الانتهاء، شعرت بالحزن وأنا أخبر والده أن مجهوده فى جمع المستندات واستكمال التحقيق قد أصبح مآلة الحفظ بعد أن تنازل فهمي بك عن حقه فى النقود التى إعترف الحارس فجأة بإختلاسها، وكان فهمي قد حضر وأكد لى أن كل نظار الزراعة يأخذون لأنفسهم عمولة على إيجار الأرض، ويعتبرون ذلك حقاً لهم، وأن ملاك الأراضى يعلمون ذلك ويتجاهلونه حتى تسير الأمور وتدار الأرض بصورة مرضية وميسورة للجميع، ولكن سارق الحلى الذهبية ظل مجهولاً، ومع ذلك مال رئيس النيابة إلى حفظ التحقيق متجاهلاً شهادة مأمور الشهر العقارى حيث لم يؤد تسجيل أملاك المرحومة بإسم أخيها - وهو شقيقها ووارثها الوحيد - إلى غبن أو ظلم لأحد .

ورغم أننى قضيت أسبوعين مضنيين فى تحقیقات متواصلة مع العمدة وأهل القرية، ثم مع أصدقاء المرحومة وأقاربها إلا أننى أصبحت أميل إلى أن حفظ القضية أضحى لا مفر منه، وشعرت بالراحة والإطمئنان لإتجاه رئيس النيابة الذى رأى أنه يجنبنا السير فى طريق مسدود لا طائل من وراءه.

اتصل بى رشدى عقب عودته إلى عمله، وأكد لى أنه كان برغم كل شىء يتوقع هذه النهاية لموضوع الوفاة، وذلك لتشابك الحادثة مع مصالح كثيرين من الأقارب وأهل القرية من ذوى النفوذ الذين يهمهم

أن يغلق هذا الملف نهائياً، لم أدر ماذا أقول.. دعوته إلى العشاء فى نادى القضاء احتفالاً بإستعادته لعافيته فقبل شاكرًا.

فأجأنى وجوم صديقى وإصراره على ألا يتناسى قضيته، روى لى مناماً رآه أثناء وجوده بالمستشفى فضحكنا سوياً برغم أنه لم يكن سعيداً، أدركت أنه لا ينسى فى قرارة نفسه أن حادثة السيارة التى كادت أن تودى بحياته لم تكن مصادفة، ولعله إعتقد أن لفهمى بك ضلعا فى تدبيرها، حاولت أن أغير موضوع الحديث مراراً دون جدوى، لكننى شعرت بمدى ضيقه عندما سألتنى فجأة: "هل كان أبى محققاً عندما ترك العمل فى فرنسا ليعود لوطنه، وعندما نبذ التدريس فى الجامعة ليعمل فى القضاء؟" ... لم أدر ماذا أقول له إذ شعرت برفضه لكل شىء .. و غضبه العارم على كل ظروف البلاد وملابس العمل.

بعد يومين إتصل بى رشدى وأخبرنى فى إستبشار أن لديه أخباراً هائلة، وضعت سماعة الهاتف، وأنا أضرب أخماساً فى أسداس، حضر صديقى القديم إلى مكتبى قبيل انتهاء موعد العمل، وإندفع قائلاً انه وجد السائق الذى أوصل فوزية هانم إلى القرية، وأضاف فى إنتصار وقد أضاء البشر وجهه لأول مرة منذ فترة طويلة: "لقد وجدت السر الذى طالما جاهدوا لإخفائه عنى، لكننى لن أبوح بشىء قبل أن أحضر لك محضراً رسمياً وشرائط التسجيل اللازمة، استمع إلى المفأجاة الآتية: فوزية عبد الرحمن عادت إلى قريتها ميتة فى حقيبة يحملها سائق السيارة، ومعه سيدة أخرى، بعد وفاتها المفأجاة فى شقة ألفت إمام، هل تعرف من هو السائق..؟" وهل تعرف من السيدة التى رافقته فى توصيل الجثة إلى فراشها فى منزلها فى القرية..؟ هذه مفاجآت وسأتركها للغد لأخبرك بها".

كان رشدى سعيداً منتشياً، وأكد لى أنه سيحضر قريب ألفت الذى طال إختفاؤه إلى مكتبى فى اليوم التالى ليدلى بشهادته الرسمية امامى، ويميط اللثام عن أسرار وفاة فوزية، ويفضح ما فعله فهمى

عندما جعل سيدة أخرى تتحل شخصيتها وتذهب إلى الشهر العقارى لتسجل ما تملكه بإسمه، وكان فهمي قد أتفق أول الأمر مع محاميه، وهو محامى شقيقته فى نفس الوقت، على أن يعتمد تسجيل وصية المرحومة التى توزع ثروتها على الجمعيات الخيرية بحيث تكتب فيها أسماء هذه الجمعيات بشكل خاطئ يجعل الإستدلال عليها مستحيلاً، مما يؤكد أن المرحومة لم تكن متمالكة لقواها حين أملت وصيتها، ويمكن لفهمى بذلك الاستيلاء على إرثه منها، وذلك ما عرفه رشدى عن طريق أحد المحامين العاملين فى مكتب محامى فهمي بك نفسه..، لكن وجود فوزية مريضة عاجزة فى منزل ألفت جعلهما يلجآن إلى حل أسهل، وهو أن تذهب إحدى السيدات منتحلة شخصية فوزية إلى الشهر العقارى لتسجيل كل ما تملك بأسم شقيقها فهمى، وظل سبب تغيير خطة فهمي الأولى وعدوله عنها غامضاً، لكن انسحاب قريب الدكتور ألفت أوضح هذه النقطة فيما بعد.

راح رشدى يؤكد لى أن لديه دليلاً دامغاً على كل كلمه يقولها، وأنه سعيد بأن يلقي رجل له أخلاق فهمي عبد الرحمن مصيره الذى يستحقه على يديه، مما يلحق أمثاله درساً لا ينسى، ولا يمكن محوه خاصة بعد ما دبروه له..، فهمت أنه يقصد حادث السيارة فطمأنته أن قرار حفظ التحقيق لم يصبح نهائياً بعد، وأنى سأنتظر حتى يوافقنى بما عنده..

قضيت ليلتى أتذكر أيام الدراسة فى المدرسة الثانوية، وزياراتى لرشدى فى منزله، كان أبوه آنذاك قد عاد للعمل قاضياً فى محكمة النقض، وفى أحد الأيام ذهبت إلى منزل رشدى قبل موعدى، فقابلنى والده وأصر على أن اتناول معه فنجانا من الشاى انتظاراً لإبنه، حدثنى عن رشدى الذى كان ابنه الوحيد، ماتت أمه وهو فى السادسة فأصبح القاضى هو الأب والأم معا، رفض فكرة الزواج وتفرغ لتربية وحيدة الذى أصبح امله ومحور حياته، قال لى الأب يومها وهو يرتشف

فنجانه: "هل أستطيع الآن أن أضحي بكل شيء فى سبيل ما أؤمن به؟.. أم أن مسئوليتى عن إبنى جعلتنى أهادن وأتجنب المواجهة؟" ..
ودهشت لهذا الحديث الذى كان فوق مستوى آنذاك.

وها هو رشدى يعيد سيرة أبيه فيواجه الموج العاتى ويقف فى وجه فهمي عبد الرحمن نفسه، فيا ترى ما هو موقف الأب المحب الحريص على مستقبل ابنه..؟ وهل سيتركه يواجه فهمي بك بكل نفوذه وسطوته ويكرر قصته نفسها..؟ الله وحده يعلم، والكل يفهم أن ظروف القطر تغيرت عما كانت عليه فى أيامه، وأن مفرمة السلطة أصبحت لا تقيم وزناً لمبدأ أو لشخص أياً كانت قيمته أو منصبه، وأن المعايير والمقاييس قد بُدلتا وصارت السلطتين القضائية والتشريعية تقدسان أصحاب السلطة التنفيذية، وتحميان أهواءهم ورغباتهم ومصالحهم، لم يعد هناك وزن لأصحاب المبادئ والقيم من الحالمين بمجتمع مثالى، إذ توحشت أجهزة الأمن، فأصبحت تقترب كل من تسول له نفسه الوقوف فى وجه هذه الأهواء والرغبات والمصالح....

* * * * *

لم يحضر رشدى شاهده الموعود فى اليوم التالى، ولم يتصل أو يحضر كعادته للقاءى، إتصلت مساءً بمنزله فلم أفر برد على جرس الهاتف، مررت على مكتب والده فوجدته مغلقاً، وتكرر الأمر فى اليوم التالى حتى أصابنى القلق و عصفت بفكرى الظنون، فى اليوم الثالث لم أطق صبراً فإتصلت بالمركز فأجابنى الجندى المكلف بمكتب رشدى أنه متغيب منذ يومين لأمر طارئ، عاودت الاتصال بمنزله ومكتب والده دون مجيب، كان اليوم الرابع هو عطلة نهاية الأسبوع، طالعتى أنباء التشكيل الوزارى الجديد، واختيار فهمي عبد الرحمن وزيراً للدولة، لم أدر ماذا أفعل فعولت على أن أمضى فى تنفيذ ما إتفقت عليه مع رئيس النيابة بخصوص حفظ القضية فى أول يوم من الأسبوع التالى.

توجهت إلى المركز حيث قابلني المأمور مرحباً، وقال لي: "هل جئت لتهنئة زميلك الجديد...؟". لم أفهم ما يعنيه، فأخبرني أن رشدي حامد قد عين وكيلاً للنائب العام منذ أيام، وذلك ضمن مجموعة جديدة، منها عدد من ضباط الشرطة، سألته إن كان يعرف أخباراً عن والد رشدي، فأكد أنه بخير، لكنه سافر إلى العاصمة مع ابنه الذي كان عليه أن يتسلم عمله هناك قبل أن يختاروا له المنطقة التي سيعمل بها.

ذهبت إلى البنك الذي يعمل به قريب ألفت إمام وسألت عنه، فأخبرني زملاؤه أنه نفذ أخيراً ما كان يخطط له منذ فترة طويلة، وغادر القطر مهاجراً إلى إحدى بلاد العالم الجديد، لم أدر كيف أفسر ما حدث وعزمت على زيارة والد رشدي في المساء، لكن مكتبه ظل مغلقاً فلم أستطع لقاءه.

علمت فيما بعد أن فهمي عبد الرحمن قد شرع في بيع أرضه وأرض شقيقته التي آلت إليه، كان المشتري الذي طال انتظاره هو نفسه الذي ألح في شراء الأرض قبل ذلك، توسط العمدة في الصفقة، ويقال إنه فاز بمبلغ طائل من المال من ورائها، أقام أخو فهمي بك في المنزل الذي تركته السيدة فوزية، وأشرف على زراعة أرضه وأرض أخيه، وتعود أن ينتقل بين عمله في عاصمة الإقليم وقريته كما كانت أخته تفعل ذات يوم.

ظللت في حيرتي إلى أن استدعيت حارس المنزل الذي كان قد أودع مؤخراً في الحجز على ذمة التحقيق، ورغم أنني لم أكن مرتاحاً لأقوال فهمي بك بشأنه، ولا لحيل محاميه الذي جعله يغير أقوال، إلا أنني كنت أعلم أن كل شيء سينتهي بحفظ التحقيق، وسيعود الرجل إلى قريته سالماً من غير سوء، وقد أضحت جريمته غير ذات بال وسط خضم الأحداث التي يراود دفنها ونسيانها، أشرت إلى كاتب النيابة أن ينصرف حالماً وصل الرجل إلى الغرفة، وألمحت إليه أن من حقى أن

أمدد حبسه على ذمة التحقيق - برغم ما قاله فهمي عبد الرحمن عن تنازله عن حقه - تمسكاً بحق الدولة، إرتجف الرجل الذى كان قد وطن النفس على العودة لمنزله واهله، فسمحت له بالجلوس حتى هذا روعة، وسألته أن يحكى لى ما يعرف عن فوزية وأخوتها، فإستحلفنى أن أطلق سراحة إن صدقتى، وعدته بذلك ملمحاً اننى اعرف بعض التفاصيل التى أحب أن أستوثق منها، ويبدو أننى نجحت في إيهامه بما أريد فقد إنطلق لسانه وأخذ يحكى لى القصة من أولها.

* * * *

كان والده يعمل لدى عبد الرحمن باشا كناظر للزراعة، ورغم أن العمدة القديم، كان يكلف أحيانا من قبل الباشا ببعض المهام التى قام بها ليرضيه ويتجنب أذاه، لكن الحقيقة أن الرجلين لم يكونا على وفاق كما ظن القرويون أيامها، وكان فهمي هو الابن الأكبر للباشا، ماتت والدته، وتزوج الباشا من إحدى قريباته قبل أن يمر عام على وفاتها، ولم تكن الزوجة الجديدة على وفاق مع أولاد زوجها، لكنها كانت تخشى فهمي بصفة خاصة، وتسعى إلى أن يحرمه والده من ميراثه خاصة بعد أن أنجبت ولديها، وربما كان شعورها هذا وراء الكثير من الإشاعات التى ضخمتها عن سلوك فهمي في المدينة، والتي ظلت تنتشر عن طريق معارف زوجه الباشا وخدمها من أهل القرية، كان الخواجة الأرمنى جد ألفت قبل ذلك قد فتح خمارة على أطراف المركز، ودأب بعض الميسورين من القرية على التردد عليها، وتعرف عبد الرحمن باشا في هذا المكان بابنه الخواجة عن طريق العمدة الكبير والى العمدة الحالى، ويبدو أن العلاقة بينهما تطورت بسرعة، حتى خاف الباشا من أن تفتضح إذا ظهرت ثمرتها التى بشرته بها إبنة الخواجة مهددة إياه إذا لم يجد لها مخرجاً، ولم يعرف الباشا ما إذا كانت المرأة صادقة، أم أنها لجأت لهذه الطريقة لإبتزازه، لكنه مال إلى تصديقها خاصة وأن بعض نسوة القرية أكدن أنها كانت حاملا فعلاً قبل زواجها،. كان الخواجة قد أصبح من

أثرياء القرية بعد أن إمتلك مساحة كبيرة من الأطيان عن طريق شرائه أرض من لم يسددوا الأموال التي كان يقرضها بالربا الفاحش، وعرف الباشا أن عليه أن يقبل تدبير زوج لعشيقته يدارى فضيحتها، وفي نفس الوقت فإنه اشترى أرض الخواجه بسعر يعتبر باهظاً آنذاك، وبذلك بدأت قصة ألفت إمام أو "الدكتورة" كما عرفها القرويون.

أصبح إمام أفندي زوجاً لابنه الخواجة، وعمل عند الباشا بعد تخليه عن عمله في عاصمة الإقليم، كما كان يعمل عند صهره الذي ترك الأرض والقرية بلا رجعه، ويعتقد العمدة وناظر الزراعة وبعض الذين عاصروا هذه الحادثة أن الباشا كان يظن أنه هو والد ألفت التي نشأت وترعرعت في منزل إمام، ولا يدرى أحد ما هو شعور هذا الرجل، وماذا دفعه إلى قبول هذه الزيجة، والطريف أن بعض أهل القرية ظنوا أن ابنه الخواجة قد أخطأت وزلت مع إمام أفندي، مما دعا والدها لقبول تزويجه منها قبيل تركه للمنطقة بأسرها.

كان فهمي واعياً عندما لاحظ أهتمام أبيه بألفت، فألح عليه أن ينسى أمر الفتاة، ولم يكن مؤمناً أنها فعلاً أخته، لكن الباشا رفض هذا تماماً وظل على ضلاله القديم، وكانت زوجة الأب تتقل للجميع ما يحدث بين زوجها وإبنه بصورة معكوسة بحيث يظن الناس أن الباشا غاضب من سلوك إبنه لا العكس، وظل عبد الرحمن باشا يكتفى برعاية من يحسبها إبنته عن بعد، وبصورة لا تثير الشكوك، وشجّع فوزية هانم على مصادقتها حتى يتيسر له ذلك.

عندما ذهبت ألفت إلى الخارج مع فوزية، فإنها قابلت فهمي وأحست بتعاطفه معها، ولما كانت موقنة أنها ليست أخته فقد إتفقت معه على أن يتزوجها، وذلك فيما يبدو حتى تنال جزءاً من حقها من ثروة أبيها المزعوم، لكن الباشا كاد أن يجن عندما علم بما نواه إبنه، وأجبره على أن يصرف النظر عن هذا الارتباط، ومنعه من رؤيتها بعدئذ، وعرفت ألفت منذ عودتها من الخارج أن زواجها الصوري من

"أخيها" لن يتم بعد تدخل فوزية وأبيها، لكن الماضي ظل يطاردنا في حياتها بعد ذلك، فتسبب في طلاقها من زوجها التاجر، وربما في هجرة ولديها أيضا.

اعترف الرجل أنه تسلل إلى المنزل مساء يوم حضور فوزية هانم في ساعة متأخرة، بعد استدعائه وزوجته بواسطة العمدة حتى يودع آخر مبلغ كان حصلة من إيجار أرض فوزية عبد الرحمن في الخزانة، لكنه وجد الخزينة مفتوحة وفارغة، وفوجئ بباب غرفة سيدته مفتوحا ورأها نائمة في وضع مائل وكأنها توشك أن تسقط من فراشها، فاستدعى زوجته بسرعة، أكدت له الزوجة وفاة فوزية، وظلا لا يدریان ماذا يفعلان لكن الزوجة فوجئت بضياح المصاع، وإتفقا على ضرورة إحضار الشرطة وإنكار دخولهما المنزل في المساء حتى يبعدا الشبهة عنهما، وفضلا أن يكون استدعاء الشرطة في الصباح بعد أن رتبا ما يقولانه في التحقيق.

تم الإفراج عن الحارس، وأصبح حفظ التحقيق في الحادث محققا، أحسست بالإرهاق والتعب وأنا أبلغ رئيس النيابة بملخص ما تم في التحقيق، لم أذكر شيئا عن حديثي مع حارس المنزل وإستأذنته في الذهاب إلى منزلي مبكرا.

** ** * * *

رغم عدم رضای عما تم إلا أنني شعرت بالسكينة بعد انتهاء دورى فى التحقيق، لم تمنعنى بعض الأسئلة التى ظلت معلقة من أن أسعد في قرارة نفسى لنجاتى من التورط والدخول في التصادم مع فهمي عبد الرحمن الذى قد يكون وراء ما جرى لصديقى رشدى حامد، وأجل رئيس النيابة قراره النهائى عدة أيام، فطلبت منه إجازة قصيرة فوافق على الفور.

نعمت بفترة إسترخاء وراحة إستمرت أياماً، ولم يعكر صفوها إلا بعض الخواطر المتعلقة بحادثة وفاة فوزية، كما أنني أخذت أتساءل في

دهشة وحسرة عما إذا كان والد صديقى رشدى قد باع تاريخه ونقاء سيرته، هل يفسر تعيين ابنه في النيابة العامة كأنه الثمن الذى إرتضاه ليقتل هذا الانحراف المفاجئ عن الخط الذى سار عليه طوال حياته، وصنع بالتزامه إياه سيرته الناصعة..؟.. غالبت ظنونى وتهيبت أن أدين الرجل الذى شببت على إحترامة دون أن أسمع، أو أعرف من ابنه - وهو صديقى - حقيقة ما حدث، لكننى تساءلت عما كنت أفعله لو كنت في مكانه دون أن أجد جواباً شافياً، بيدانى تمنيت أن أكون مخطئاً وأن تكون وظيفة رشدى التى طالما حلم بها مجرد صدفة لا علاقة لها بالحادث أو التحقيق.

وعصفت بذهنى الأفكار وتناوبتنى الظنون، وظللت طيلة الأيام التى تلت في بحر لحي من التوقعات الغامضة، كنت أحياناً أستغرب عما جعل فهمي عبد الرحمن يفكر يوماً في الارتباط بألفت إمام، هل كان واثقاً إنها ليست أخته غير الشرعية، وأن أباه - عبدالرحمن باشا- تعرض لعملية نصب ..؟ ومن تكون هى السيدة التى رافقت ذلك السائق المجهول إلى القرية لنقل جثة فوزية إلى منزلها وفي فراشها؟ .. وكيف واثقاً الجرأة على الاتصال بالعمدة زاعمة أنها فوزية لتطلب منه إرسال الحارس وزوجته حتى يظل الجميع موقنين أن فوزية عبد الرحمن ماتت بعد وصولها إلى القرية. ؟ ثم يبقى السؤال الأهم: من الذى طمع في مال فوزية ومصاغها؟.. ورغم التشابه بين ألفت إمام وفوزية فإننى ظللت أستبعد أن تكون هى التى أنتحلت شخصية فوزية في الشهر العقارى... أو في رحلتها الأخيرة للقرية حيث يعرفها الجميع.

وأشفقت من معرفة الحقيقة، ففى كل مرة يظهر فيها ضوء كانت الشخصيات تنقلب من الخير إلى الشر، وتتبدل أدوارها تبديلاً بيناً وجعلنى هذا متخوفاً ممت ظننته سينكشف من أسرار أليمه فيما لو كان رشدى قد وفي بوعد وأحضر الملف والشرائط، وظللت قانعاً في قرارة نفسى بانتهاء الأمر على هذا النحو المبتور.

الخاتمة

فؤجى وكيل النيابة بعد أيام قليلة بمكتب والد رشدى مضاء فلم يستطع مقاومة رغبته فى رؤيته، دخل المكتب فوجده يغص بالعملاء، فتراجع حتى لا يضطر إلى الانتظار طويلاً، وعاد بعد أن تمشى حول المكتب حوالى الساعة ليهدىء من روعه، كان الساعى يعرفه فلم يتردد فى إبلاغ والد صديقه الذى لم يتركة بدوره ينتظر طويلاً، عندما دلف إلى غرفة الأستاذ حامد وجده مشغولاً بمجموعة من الأوراق على مكتبه لعلها تراكمت أثناء فترة غيابه، كان واضحاً أن وقته لا يتسع للترحيب به فإعتذر له، ومد يده إلى أحد أدراجه فأخرج منه ملفاً وعدة شرائط "كاسيت" سلمهم إليه قائلاً إن رشدى أرسلهم، معتذراً لأنه تأخر عن مواعده نظراً لأمر طراً سيدكره له عندما يحضر بنفسه لمقابلته فى اليوم التالى، تم نهض مودعا وهو يقول "أنا ورشدى مستعدان للوقوف إلى جانبك فى أى مكان تحتاجنا فيه"، وأضاف:

" قد يكون فى هذه الأشياء جلاءً لمعظم النقاط الغامضة، وإذا وجدت فى نفسك الرغبة والشجاعة لتخوض معركة تشبه معاركنا القديمة فنحن هنا لمعاونتك..."

خرج وكيل النيابة يجرجر قدميه وينوء بحمله من الأفكار والمخاوف، داهمته الهوموم بعد أن ظن انه نجا منها إلى الأبد.

الغريب انه فوجىء عند خروجه بالدكتورة ألفت إمام وقد تخلت عن ملابس الحداد، وظهرت على وجهها علامات الرضا والإطمئنان حتى تغيرت ملامحها، تلاقت أعينهما فردت تحية المساء فى شىء من الفتور، عاد لمنزله وفى أعماقه تمنى ألا تكشف الأوراق والتسجيلات ما يدين أولئك الذين طالما أحبهم الناس واحترموهم، ولا الذين وقع

عليهم الظلم والحيث فاعمى بصيرتهم ودفعهم إلى الإنتقام من معذبيهم وجلاديتهم، تذكر رغباً عنه الدكتور ألفت بناظريه وهى تدخل مكتب الأستاذ حامد المحامى فى ثقة وثبات، وتساءل عما دفعها إلى مقابلة الأستاذ فى ذلك الوقت المتأخر.

وجدت جثة قريب د. ألفت إمام بعد أيام فى نزل بالعاصمة الكبرى، كان قد أستاجر غرفة لفترة قصيرة لكنه لم يعد المفتاح، ولم يغادر غرفته مما حدا بمدير النزل أن يفتح الغرفة عنوة، ففوجئ بالرجل ميتا فى فراشة، حضر محام صغير بعدها الى قسم الشرطة ومعه خطاب وشريط كاسيت بصوت المرحوم، يحكى فيها قصة زواجه من فوزية عبد الرحمن وتهديد أخيها له حتى طلقها، وكيف أنه أثناء مرض فوزية حاول زيارتها ليشرح لها ما حدث ويحذرها من أخيها، وكان قد علم بالتغيير الذى أجراه محاميه فى الوصية التى تركت فيها أموالها للجمعيات الخيرية، وخشى فهمي أن تقسد مقابلته لها خطته للإستيلاء على أموالها، فعاد إلى تهديده، ومن ناحية اخرى وعده المحامى بتسهيل إجراءات السفر ومنحه مبلغا من المال إذ كان ما يزال يفكر فى الهجرة، لكنه خاف من غدر فهمي ومحاميه فترك سجلاً بما حدث عند محام شاب من معارفه لتسليمه للشرطة إذا ما حل به مكروه، وحدث ما توقعه الرجل وإن ظل دور فهمي فى وفاته غامضاً كالعادة، وحفظ وكيل النيابة اعتراف الرجل وشريط التسجيل مع تقرير الطبيب الشرعى عن وفاته التى نتجت عن ضربه بأله حادة على رأسه، ولم تجد الشرطة أداة الجريمة، كما لم توجد بصمات قد تشير إلى الفاعل..! وضُمت الاعترافات والشريط إلى ملف قضية فوزية.

حضر رئيس النيابة فى اليوم التالى فحدثه وكيل النيابة عما حدث، وأطلعه على ملخص لما وجدته فى الملفات وشرائط التسجيل..

بعد فترة صمت أخبره أنه سيتحدث إلى كبار المسؤولين فى وزارة العدل قبل أن يقرر ما يجب أن يفعله بخصوص التحقيق!...

عاد الرجل فى المساء واخبر وكيل النيابة أن عليهما الماضى فى التحقيق إلى نهايته مهما تكن أشخاص من يمسهم هذا التحقيق، وأكد له أن وزير العدل الجديد أخذ علما بالأمر، وأنه يظن ان والد رشدى قد كلمه بهذا الخصوص.

لكنه نبهه إلى عليه إعادته إستجواب الشهود ثانيةً، وأن يقوم بفحص الأدلة قبل إستدعاء فهمي عبد الرحمن الذى أصبح ضلوعه فى التزوير ومحاولته إخفاء الحقائق ثابتين بصورة شبه مؤكده، كما جاء فى شهادة الخادمة التى حملت جثمان فوزية الى منزلها فى القرية، وطابقت بصماتها تلك الموجودة فى غرفة المكتب، وعلى خزنة النقود، وصوان الملابس، وفى أرجاء المنزل، وأكدت انها لم تعرف السبب فى إصرار فهمي بك على نقل جثة أخته، وإعترفت أنه هى التى اتصلت بالعمدة بعد أن أخرجت الجثة من الحقيبة، ووضعتها فى فراشها، كما أنها إعترفت بإنتحال شخصية فوزية قبل ذلك بيوم واحد فى الشهر العقارى، وعثر على بعض الحلوى الخاصة بالمرحومة فى منزلها مما دفعها للاعتراف بسرقة مجوهراتها، والإستيلاء على النقود بعد فتحها للخزنة بمفتاح كأن مع مفاتيح المنزل بالمصادفة.

واعترف سائق فهمي الخاص بنقل الخادمة مع الحقيبة إلى المنزل، وأنه استخدم التاكسى الذى يعمل عليه فى المدينة، كما أدلى بمعلومات قيمة عن حادث السيارة الذى تعرض له رشدى حامد أكدت شكوكه عند حضور فهمي عبد الرحمن شعر وكيل النيابة بمدى إنهاره، وكانت أقواله فى البداية متضاربه مضطربة، لكنه - عندما حضر محامية - بدأ يرتبها قدر الإمكان، ولاحظ أنه إنما كان يهدف فقط إلى تقليص التهم الموجهة إليه بعد أن يأس من نفيها كلياً بصورة مقنعة.

حضر رشدى حامد ليبيدى إستعداده للشهادة فى المحكمة، كان سعيدا بوظيفته الجديدة متشوقا لإدانة فهمي عبد الرحمن، لكنه لم يسعد عندما أخبره صديقه وكيل النيابة أن قصارى ما يمكن أن يثبت ضد العمدة وشيخ الخضر هو تحريض الشهود على تغيير أقوالهم، وأن تجارة السلاح والمخدرات ما يزالان دون إثبات.

كان رشدى يدخر آخر مفاجآته، فقد قال له وهو يودعه " ألم تبارك لوالدى وللدكتورة ألفت إمام..؟ نظر إليه وكيل النيابة وهو لا يصدق، لكنه أضاف مؤكداً: " لقد أعلنت خطبتهما أمس" ..، شد على يده مودعا و تركه لا يدري ماذا يقول، لكنه شعر أنه يتمنى لهما السعادة بصدق، إذ بينما توالى الاعترافات وتجلت الحقائق المفزعة أمام ناظره، وسقطت الأقنعة مظهره علامات القبح التى طال أخفاؤها أو تمويهها، ظلت الدكتورة والأستاذ بمنأى عن كل تشويه ثابت أو إتهام مؤكد، وسعد وكيل النيابة خاصة بأن خرج أسم أستاذه القاضى حامد البشير من هذه القصة نظيفا طاهرا، لا تشوب سيرته شائبه.

بعد هذه الحوادث بأعوام قليلة كان معظم الناس قد تناسوا تفاصيل ما حدث، لكن أحدا لم ينس انتحار فهمي عبد الرحمن الذى أنهى التحقيق بصورة مأساويه مفاجئة، بعد أن افتضحت محاولته الفاشلة للهروب خارج البلاد، وأنتهت بذلك حياته التى حفلت بالطموحات والأسرار.

ظل أهل القرية يترحمون على فوزية عبد الرحمن ويذكرون أيديها وخدماتها، أما عمدة القرية فقد أصيب بعيار نارى فى صدره، وبقي طريح الفراش على إثر الإصابة حتى وافته المنية وهو يهدد المطاريد ويتوعدهم فى نوبات الحمى التى ظلت تنتابه من حين لآخر، وأطلق أهل القرية أسم فوزية عبد الرحمن على مدرستى البنات.

زارت الدكتورة ألفت قبر صديقتها فى القرية مصطحبة زوجها
القاضى السابق مرة واحدة، أشيع بعدها أنها سعت كى تنتقل إلى
إحدى الجامعات فى منطقة أخرى قريبة من العاصمة الكبرى حيث
نقل زوجها مكتبه، وكان هذا آخر عهدهما بالقرية.

دأب رشدى على زيارة صديقة وكيل النيابة فى الأعوام التى تلت
هذه الأحداث من حين لآخر، وظل الأخير يتابع من خلاله أخبار والده
والدكتورة ألفت، وفى إحدى المقابلات كان يصطحب ابنه حامد
الذى كان يأمل أن يكون القاضى رقم ٥ فى العائلة..!!

(تمت)

٢٠٠٠/١١/٣٠ م

** ** * *



فهرس

٣	العمدة
١٧	فهى عبد الرحمن
٢٦	رشدى حامد
٤٠	ألفت إمام
٦١	وكيل النيابة
٧٥	الخاتمة

رقم الإيداع

٢٠٠٥/٢١٨٧٩

الترقيم الدولى

977 - 209 - 136 - 4